الأحاديث النبوية الكلية

التي عليها مدار أحكام الإسلام

ويليه

أحاديث الأربعين النووية

إعداد

صالح أحمد الشامي

دار القلم

دمشق

الأحاديث النبوية الكلية

التي عليها مدار أحكام الإسلام

دار القلم
دمشق

أسّسها:
محمد علي دولة
سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م

الطبعة الأولى
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

الأحاديث النبوية الكلية

التي عليها مدار أحكام الإسلام

ويليه

أحاديث الأربعين النووية

إعداد

صالح أحمد الشامي

دار القلم
دمشق

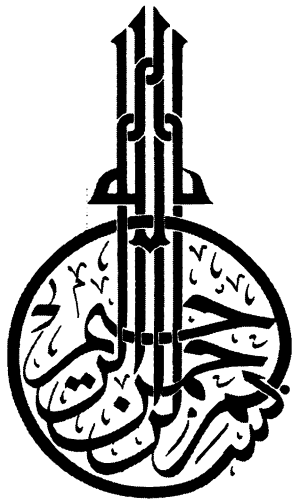

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ خير العلوم ما كان متَّصلاً بالقرآن الكريم وبالسُّنَّة المطهرة، وقد بذلَ سلفُنا الصالح ـ رحمهم الله تعالى ـ من الجهود في هذا السبيل ما هو معلوم لكلِّ طالب علم، ممَّا لا يحيط به الإحصاء، فكان الواحد منهم يمضي عمره كلَّه في سبيل إعداد كتاب يضعه بين أيدي الناس، موفِّراً لهم الوقت، ومقرِّباً لهم ما هم بحاجة إليه.

وخير مثال على ذلك الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٢٤١هـ) الذي أمضى عمره كلَّه في سفر وترحال وسهر وتحمُّل مشاقٍّ، ليقدِّم للمسلمين ويضع بين أيديهم ثمرة جهوده في كتاب سماه «المسند»، وقد انتقى أحاديثه من بين مئات آلاف الأحاديث التي جمعها، إنه جهد لا يستطيع تقدير حجمه إلا من عرف سيرة هذا الإمام، وكان له نصيب من الاشتغال بطلب العلم.

ومن هنا كانت كلمات هؤلاء الرجال التي تصدر عنهم ذات قيمة كبيرة؛ لأنَّها حصيلة علم مترامي الأطراف، واسع الظلال، فينبغي

الاستفادة منها، والتمسُّك بها، لأنَّها خلاصة تجربة امتدت مساحتها طول الحياة.

ومن هذه الكلمات قول الإمام أحمد ـ عندما أراد أن يقدم خلاصة فقهه وعلمه بالسنة النبوية، ويلفتَ النظر إلى أحاديث جامعة بغية تعلمها ومعرفه فقهها ـ قال: «أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث:

ـ حديث عمر: (**إنَّما الأعمال بالنِّيَّات**).

ـ وحديث عائشة: (**من أحْدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**).

ـ وحديث النعمان بن بشير: (**الحلال بيِّن والحرام بيِّن**)».

إنَّ مثل هذه المعلومة عندما تصدر عن الإمام أحمد، فإنها لا تقدَّر بثمن لنفاستها، فهو المحدِّث وهو الفقيه.

وقد صدرت كلمات أخرى تشبه هذه الكلمة، وتلتقي معها، عن الإمام الحافظ إسحاق بن راهويه (ت٢٣٨هـ)، وكذلك عن الإمام الحافظ أبي داود (ت٢٧٥هـ) صاحب السنن.

وبعد ذلك بزمن، أملى الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن موسى الشهير بابن الصلاح (ت٦٤٣هـ) مجلساً سمَّاه: الأحاديث الكلية، جمع فيه الأحاديث الجوامع التي يقال: إن مدار الدين عليها.. وقد اشتمل مجلسه هذا على ستة وعشرين حديثاً.

ثم إنَّ الإمام أبا زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ) أخذ أحاديث ابن الصلاح وزاد عليها، حتى بلغت اثنين وأربعين حديثاً، وسمَّى كتابه «الأربعين» وعرف بالأربعين النووية.

ثم جاء الحافظ ابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ) فزاد عليها حتى بلغت خمسين حديثاً، وسمَّى كتابه «جامع العلوم والحكم».

وقد رأيتُ أنَّ الكلمات التي صدرتْ عن الرعيل الأول، هي أكثر دقة في الدلالة على ما ذهبوا إليه من حيث اختيار الأحاديث التي هي أصول الأحكام، بل وأصول الإسلام، وما أضيف إليها بعد ذلك فهو في معظمه شروح وتطبيقات لتلك الأصول المختارة.

ولهذا أحببتُ أن أعتني بهذه الأحاديث، وقد بلغ عددها ثمانية، وأضفت إليها حديثين هما في مستوى ما اختاره الأئمة ـ كما سيرى القارئ الكريم ـ فبلغ المجموع عشرة، وهي جميعها من أحاديث الأربعين النووية، وهي جميعها ممَّا رواه الشيخان ـ البخاري ومسلم ـ أو أحدهما.

واستفدتُ في شرحها من شرح الحافظ ابن رجب في كتابه «جامع العلوم والحكم»، فاخترت منه ما يحتاج إليه كلُّ قارئ، دون ما ذهب إليه من استطرادات وبحوث لا يستفيد منها إلا المختصون، وقد وضعتُ كلامه بين حاصرتين [ ]، وما أضفتُه من شروح غيره بيَّنتُ مصدره.

وهذه الأحاديث هي من جوامع الكلم التي خُصَّ بها النبيُّ ﷺ؛ ففي «**الصحيحين**» من حديث أبي هريرة قوله ﷺ: (**بعثتُ بجوامع الكَلِمِ**).

واستكمالاً للفائدة، فقد وضعتُ بقية أحاديث «الأربعين النووية» في القسم الثاني من الكتاب.

وسوف يكون الشرح مقتصراً على الأحاديث التي تحتاج إلى ذلك، وبشكل مختصر يؤدي الغرض دون تطويل.

هذا، وأرجو أن أكون قد وفِّقْتُ فيما قصدتُ إليه، وإن جانبني الصواب فحسبي أني اجتهدتُ، وبذلتُ الجهد، وللمجتهد أجره إن شاء الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

٥ جمادى الأولى سنة ١٤٣٥هـ
٦/ ٣/ ٢٠١٤م

وكتبه
صالح أحمد الشامي

قال الحافظ أبو الفرج ابن رجب الحنبلي عند شرحه لحديث: **(إنَّما الأعمال بالنِّيَّات)**:

«وهذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور الدين عليها:

• فروي عن الشافعيِّ: أنَّه قال: هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل في سبعين باباً من الفقه.

• وقال الإمام أحمد: أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث:

ـ حديث عمر: **(إنَّما الأعمال بالنِّيَّات)**.

ـ وحديث عائشة: **(من أحْدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ)**.

ـ وحديث النعمان بن بشير: **(الحلال بيِّن والحرام بيِّن)**.

وقال الحاكم: حدثونا عن عبد الله بن أحمد، عن أبيه: أنَّه ذكر قوله ﷺ: **(الأعمال بالنيات)**، وقوله: **(إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً)**، وقوله: **(من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو ردٌّ)** فقال: ينبغي أن يُبتدأُ بهذه الأحاديث في كل تصنيف، فإنَّها أصول الأحاديث.

• وعن إسحاق بن راهويه، قال: أربعة أحاديث هي من أصول الدين:

ـ حديث عمر: **(إنَّما الأعمال بالنِّيَّات)**.

ـ وحديث: **(الحلال بيِّن والحرام بيِّن)**.

ـ وحديث: **(إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً)**.

ـ وحديث: **(من صنع في أمرنا شيئاً ما ليس منه فهو ردٌّ)**.

• وروي عن عثمان بن سعيد، عن أبي عبيد، قال:

ـ جمع النبيُّ ﷺ جميع أمر الآخرة في كلمة واحدة: **(من أَحْدَثَ في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ)**.

ـ وجمع أمر الدنيا كلَّه في كلمة واحدة: **(إنَّما الأعمال بالنِّيَّات)**.

يدخلان في كل باب.

• وعن أبي داود، قال: نظرتُ في الحديث المسند، فإذا هو أربعة آلاف حديث، ثم نظرتُ فإذا مدار أربعة آلاف حديث على أربعة أحاديث:

ـ حديث النعمان بن بشير: **(الحلال بيِّن والحرام بيِّن)**.

ـ وحديث عمر: **(إنَّما الأعمال بالنِّيَّات)**.

ـ وحديث أبي هريرة: **(إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيباً)**.

ـ وحديث: **(من حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه)**.

فكل حديث من هذه الأربعة ربع العلم.

وفي رواية ثانية: عن أبي داود، قال: ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث:

ـ أحدها: قوله ﷺ: **(إنَّما الأعمال بالنِّيَّات)**.

ـ والثاني: **(من حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه)**.

ـ والثالث: **(لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)**.

ـ والرابع: **(الحلال بيِّن والحرام بيِّن)**.

وفي رواية ثالثة له: جعلها خمسة، وزاد على ما سبق:

ـ **(لا ضَرر ولا ضِرار)**.

ـ **(الدين النصيحة)**.

ـ **(ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه)**» انتهى قول ابن رجب.

هذه عشرة أحاديث، قيل عن كلٍّ منها: إنَّه أصل من أصول الإسلام، وهناك حديثان منها لم يبلغا مبلغ الصحة؛ وهما: (**من حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه**)، و(**لا ضَرر ولا ضِرار**)؛ فينبغي استبعادهما، فلا يعقل أن يكون الحديث من الأصول وهو لم يرتقِ إلى الصحة، وهذان الحديثان انفرد أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ بإضافتهما إلى هذه الأحاديث.

وهكذا بقي لدينا ثمانية أحاديث، أحدها رواه الإمام مسلم، وبقيتها متفق عليها بين الشيخين ـ البخاري ومسلم ـ رحمهما الله تعالى.

وبعد النَّظر في هذه الأحاديثِ لم نجدْ بينها قولَه ﷺ: (**بُني الإسلامُ على خمسٍ**) وهو أصلٌ من أصول الإسلام؛ لأنَّه يجمع أركان الإسلام.

ولبيان سبب ذلك أقول:

ليس من المعقولِ أن يغيب مثلُ هذا الحديث عن هؤلاء الأئمة، حتَّى لم يذكره واحد منهم، وإنَّما هذا الحديث وأمثاله ليس في دائرة الموضوع الذي يتحدَّثون عنه، فقضية الإيمان والاعتقاد وأركان الإسلام ليست في إطار ما يقصدون إليه، وإنَّما كان هدفهم أن يضعوا بين يدي الإنسان المسلم ـ الذي استقرَّ الإيمان في قلبه ـ ما يضبط به سلوكَه الشخصيَّ، وما يصحِّح به معاملتَه مع الآخرين.

فالمقصودُ بيان الأحاديث الجامعة التي تضبط أقوال المسلم وأفعاله بحيث تكون منضبطة مع ما جاء به هذا الدين الحنيف من الشرائع.

وهنا قد يَسأل سائلٌ: إذا كان الأمرُ كذلك، فما الَّذي دفع الإمامَ أحمدَ وكذلك الإمام إسحاق إلى وضع حديث: (**إنَّ أحدكم يُجمع خلقه...**) بين هذه الأحاديث، ومن المعلوم أنَّه يتحدَّث عن قضية عقدية.. وهي كتابة رزق الإنسان وأجله وعمله وشقي أو سعيد، وهو في بطن أمه عند نفخ الروح فيه؟..

ويجيبنا على هذا التساؤل الإمامُ الترمذيُّ، حيث وضع هذا الحديث في جامعه تحت عنوان: «باب ما جاء أنَّ الأعمال بالخواتيم».

وعلى هذا: فالحديث في بعض ما جاء فيه داخل في إطار العمل.

• وإذا كنَّا نتحدَّث عن الأحاديث التي عليها مدار أحكام الإسلام؛ فلا بد لنا من ذكر حديث جبريل عليه السلام في بيان الإسلام والإيمان والإحسان؛ فهذا الحديث ـ فيما أرى ـ مقدم على جميع الأحاديث التي سبق ذكرها، وإن لم يكن كذلك فهو مثلها.

• فهذه تسعة أحاديث، ولما كان من المستحسن استكمال العِقد، بإضافة حديث آخر حتى تبلغ عشرة، نظرتُ في أحاديث «الأربعين النووية» أكثر من مرة، وبعد التأمُّل رأيتُ أن حديث سفيان بن عبد الله الثقفي: (**قل: آمنْتُ بالله، ثم استقم**) هو في مستوى الأحاديث الأصول، فاخترتُه ليكون ختام العقد، كما كان حديث جبريل بدايةً لهذا العِقد.

• **وأخيراً: فإنَّ الأحاديث التي اختارها الأئمَّة كلُّها تصبُّ في بيان السلوك الصحيح الذي ينبغي أن يسلكه المسلم تجاه نفسه وتجاه الناس.**

أما الحديثان اللذان أضفتُهما؛ فهما يبيِّنان ما يجب عليه في أمر العقيدة والإيمان، وبهذا يكمل التصوُّر الكليُّ لما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم.

الأحاديثُ النبويَّةُ الكُلِّيَّةُ

(الَّتي عَلَيْها مَدَارُ أحكامِ الإسْلَامِ)

الحديث الأول
حَدِيثُ جِبْرِيلَ عليه السلام

عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه، قَالَ:

بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ؛ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتى جَلَسَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ.

فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: **(الإِسْلامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلـه إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)**.

قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيْمَانِ.

قَالَ: **(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخر، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)**.

قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ.

قَالَ: **(أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ)**.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ.

قَالَ: (**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**).

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِها.

قَالَ: (**أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها، وَأَنْ تَرى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ، رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ**).

قَالَ: ثُمَّ انطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيّاً.

ثُمَّ قَالَ لِي: (**يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**).

قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: (**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**). رواه مسلم(١)

❁ ❁ ❁

- **مكانة الحديث:**

قال ابن رجب: [هو حديث عظيم الشأن جدّاً، يشتمل على شرح الدين كلِّه، ولهذا قال النبيُّ ﷺ في آخره: (هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) بعد أن شرح درجة الإسلام، ودرجة الإيمان، ودرجة الإحسان، فجعل ذلك ديناً.

وقال: وممَّا يدلُّ على عظيم شأن هذا الحديث: أنَّ جميع العلوم والمعارف ترجع إليه وتدخل تحته، وأنَّ جميع العلماء من فرق هذه الأمة لا تخرج علومهم التي يتكلَّمون فيها عن هذا الحديث وما دلَّ عليه مجملاً ومفصلاً.

فإنَّ الفقهاء إنما يتكلَّمون في العبادات التي هي من جملة خصال

---

(١) رواه مسلم (٨)، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة (خ ٥٠، م٩، ١٠).

الإسلام، ويضيفون إلى ذلك الكلام في أحكام الأموال والأبضاع والدماء، وكل ذلك من علم الإسلام. . ويبقى كثير من علم الإسلام من الآداب والأخلاق وغير ذلك لا يتكلم عليه إلا القليل منهم، ولا يتكلمون على معنى الشهادتين، وهما أصل الإسلام كلِّه.

والذين يتكلَّمون على أصول الدين، يتكلَّمون على الشهادتين، وعلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر.

والذين يتكلَّمون على علم المعارف والمعاملات، يتكلمون على مقام الإحسان، وعلى الأعمال الباطنة التي تدخل في الإيمان أيضاً، كالخشية، والمحبة، والتوكُّل، والرضا، والصبر، ونحو ذلك.

فانحصرت العلوم الشرعية التي يتكلَّم عليها فرق المسلمين في هذا الحديث، ورجعتْ كلُّها إليه، ففي هذا الحديث وحده كفاية ولله الحمد والمنة]. اهـ.

أقول: ومما يدل على مكانة هذا الحديث: أنَّه ﷺ لم يقله ابتداء، كما هو شأنه في معظم أحاديثه، وإنما نزل جبريل ليسأله عنه؛ وهذا النزول له فوائد جمة:

منها: أنَّه شدَّ انتباه الصحابة لشخصية السائل، فهو رجل غريب لا يعرفه أحد، ومع ذلك فليس عليه آثار السفر، وهذا أمر مُلفتٌ للنظر.

ومنها: أنَّ أسلوب الحوار الذي دار بين جبريل والنبي ﷺ، يجعل الصحابة أقدر على حفظ الموضوعات المطروحة، الواحد بعد الآخر، فهو أثبتُ في النفس والعقل من الأسلوب التقريري لو أتى به الرسول ﷺ ابتداء.

ومنها: أنَّ عِلْمَهم بعد ذلك بأن السائل هو جبريل عليه السلام مما يعطي للموضوع الذي كان محل البحث اهتماماً خاصّاً.

● **شرح الحديث:**

والحديث يتناول عدداً من الأمور:

١ ـ الإسلام:

[الإسلام: قد فسَّره النبيُّ ﷺ بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل.

وأوَّلُ ذلك: شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وهو عمل اللسان، ثم إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً.

وهي منقسمة:

ـ إلى عمل بدني؛ كالصَّلاة والصَّوم.

ـ وإلى عمل مالي؛ وهو إيتاء الزكاة.

ـ وإلى ما هو مركب منهما؛ وهو الحجُّ.

والحديث يدلُّ على أنَّ من أَكْمَلَ الإتيان بمباني الإسلام الخمس صار مسلماً حقّاً، مع أن من أقرَّ بالشهادتين صار مسلماً حكماً، فإذا دخل في الإسلام بذلك أُلْزِمَ بالقيام ببقية خصال الإسلام، ومن ترك الشهادتين خرج من الإسلام.

وممَّا يدل على أن جميع الأعمال الظاهرة تدخل في مسمَّى الإسلام قوله ﷺ: **(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)** رواه البخاري[1].

وفي **«الصحيحين»**: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أنَّ رجلاً سأل

---

(١) رواه البخاري (١٠)؛ ومسلم (٤٠).

النبيَّ ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: **(أن تُطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفتَ، ومن لم تعرفْ)**[١].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

٢ ـ الإيمان:

والإيمان قد فسَّره النبيُّ ﷺ في هذا الحديث بالاعتقادات الباطنة، فقال: **(أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره)**.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه هذه الأصول الخمسة في مواضع:

منها: قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ البقرة: ٢٨٥].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والإيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة والأنبياء والكتاب والبعث والقدر، وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا به، وغير ذلك من صفات الله، وصفات اليوم الآخر، كالصِّراط والميزان، والجنة والنار، ومن ذلك: الإيمان بالقدر خيره وشره.

والإيمان بالقدر على درجتين:

إحداهما: الإيمان بأنَّ الله تعالى سبق في علمه ما يعمله العباد من خير وشر، وطاعة ومعصية، قبل خلقهم وإيجادهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار، وأعدَّ لهم الثواب والعقاب

---

(١) رواه البخاري (١٢)؛ ومسلم (١٠١٣).

جزاء لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم، وأنَّ أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه.

والدرجة الثانية: أنَّ الله خلق أفعال العباد كلَّها من الكفر والإيمان، والطاعة والعصيان، وشاءها منهم.

هذا ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة[1].

٣ ـ الإسلام والإيمان:

فإن قيل: قد فرَّق النبيُّ ﷺ في هذا الحديث بين الإسلام والإيمان، وجعل الأعمالَ كلَّها من الإسلام لا من الإيمان، والمشهور عن السلف وأهل الحديث: أنَّ الإيمان قول وعمل ونية، وأنَّ الأعمالَ كلَّها داخلةٌ في مسمى الإيمان.

قال الأوزاعيُّ: كان من مضى من السلف لا يفرِّقون بين العمل والإيمان.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار: أمَّا بعد: فإنَّ للإيمان فرائض وشرائع؛ فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان. ذكره البخاريُّ في صحيحه.

قيل: الأمر على ما ذكره، وقد دلَّ على دخول الأعمال في الإيمان، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال: ٢].

وفي «**الصحيحين**»: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: (**الإيمان**

---

(١) انظر ـ إن رغبت ـ تفصيل القول كاملاً في القدر في كتاب: رضيت بالإسلام ديناً، نشرته دار القلم بدمشق.

بضع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ شعبة، فأفضلها قول: لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبة من الإيمان) واللفظ لمسلم.

وأما وجه الجمع بين هذه النصوص، وبين حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان، وتفريق النبيِّ ﷺ بينهما، وإدخاله الأعمال في مسمَّى الإسلام، دون الإيمان، فإنَّه يتضح بتقرير الأصل التالي:

إذ الأصل: أنَّ من الأسماء ما يكون شاملاً لمسمَّيات متعددة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قرن ذلك الاسم بغيره صار دالّاً على بعض تلك المسميات، والاسم المقرون به دالٌّ على باقيها.

وهذا كاسم «الفقير والمسكين» فإذا أفرد أحدهما، دخل فيه كلُّ من هو محتاج، فإذا قرن أحدهما بالآخر، دَلَّ أحدُ الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات، والآخر على باقيها.

فهكذا اسم «الإسلام والإيمان» إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، ودلَّ بانفراده على ما يدلُّ عليه الآخر بانفراده، فإذا قرن بينهما دلَّ أحدهما على بعض ما يدلُّ عليه بانفراده، ودلَّ الآخر على الباقي.

وقد صرَّح بهذا المعنى جماعة من الأئمة.

ويدلُّ على صحة ذلك: أنَّ النبيَّ ﷺ فسَّر الإيمان في حديث جبريل، وفسَّر في حديث آخر الإسلام بما فسر به الإيمان.

كما في **«مسند الإمام أحمد»**: عن عمرو بن عبسة، قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: **(أن تسلم قلبَك لله، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك)** قال: فأيُّ الإسلام أفضل؟ قال: **(الإيمان)** قال: وما الإيمان؟ قال: **(أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت)** قال: فأيُّ الأعمال

أفضل؟ قال: **(الهجرة)** قال: فما الهجرة؟ قال: **(أن تهجر السوء)** قال: فأيُّ الهجرة أفضل؟ قال: **(الجهاد)**[١].

فجعل النبيُّ ﷺ الإيمان أفضل الإسلام وأدخل فيه الأعمال.

وبهذا التفصيل يظهر تحقيق القول في مسألة الإيمان والإسلام، هل هما واحد أو مختلفان.

وبهذا التفصيل يزول الاختلاف؛ فيقال: إذا أفرد كل من «الإسلام» و«الإيمان» بالذكر، فلا فرق بينهما حينئذ، وإن قُرن بين الاسمين كان بينهما فرق.

والتحقيق في الفرق بينهما:

ـ أنَّ الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته.

ـ والإسلام هو استسلام العبد لله، وخضوعه وانقياده له، ويكون ذلك بالعمل.

وإنَّما يفرق بينهما حيث قرن أحد الاسمين بالآخر، فيكون حينئذ المراد بالإيمان جنس تصديق القلب، وبالإسلام جنس العمل. كما جاء في **«مسند أحمد»**: عن أنس رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: **(الإسلام علانية، والإيمان في القلب)**[٢].

٤ ـ الإحسان:

جاء ذكر «الإحسان» في القرآن الكريم في مواضع، تارة مقروناً بالإيمان، وتارة مقروناً بالإسلام، وتارة مقروناً بالتقوى والعمل الصالح.

وجاء تفسيره في الحديث الشريف في قوله ﷺ: **(أنْ تعبد الله كأنَّك**

---

(١) رواه أحمد (١٧٠٢٧، ١٩٤٣٥) طبعة الرسالة.

(٢) رواه أحمد (١٢٣٨١) طبعة الرسالة.

تراه) وهذا يشير إلى أن العبد يعبد الله تعالى على هذه الصفة، وهو استحضار قربه، وأنَّه بين يديه كأنَّه يراه.

وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم.

ويوجب أيضاً النصح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها.

وقوله ﷺ: (فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك).

قيل: إنه تعليل للأول، فإن العبد إذا أمر بمراقبة الله تعالى في العبادة واستحضار قربه من عبده، حتَّى كأن العبد يراه، فإنَّه قد يشقُّ ذلك عليه، فيستعين على ذلك بإيمانه بأنَّ الله يراه، ويطلع على سرِّه وعلانيته، وظاهره وباطنه، ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإذا تحقَّق هذا المقام، سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو دوام التحقيق بالبصيرة إلى قُرب الله تعالى من عبده حتَّى كأنَّه يراه.

وقيل: بل هو إشارة إلى أنَّ من شقَّ عليه أن يعبد الله تعالى كأنَّه يراه، فليعبد الله على أنَّ الله يراه ويطَّلع عليه، فليستحيِ من نظره إليه.

وقد دلَّ القرآن الكريم على هذا المعنى في مواضع متعددة:

كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨].

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بالنَّدْب إلى استحضار هذا القرب في حال العبادات:

كقوله ﷺ: **(إنَّ أحدكم إذا قام يصلي، فإنَّما يناجي ربَّه)** رواه البخاري[١].

وقوله ﷺ: **(إنَّ الله قِبَلُ وجهه إذا صلَّى)** متفق عليه[٢].

وقوله ﷺ للذين رفعوا أصواتهم بالذكر: **(إنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنَّكم تدعون سميعاً قريباً)** متفق عليه[٣].

٥ ـ علامات الساعة:

جاء في الحديث قول جبريل عليه السلام: أخبرني عن الساعة، قال: **(ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)** قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: **(أن تلد الأمَةُ ربَّتَها، وأن ترى الحفاة العراة العالة، رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)**.

فقوله ﷺ: **(ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)** يعني: أنَّ علم الخلق كلهم ـ في وقت الساعة ـ سواء، وهذه إشارة إلى أنَّ الله تعالى استأثر بعلمها.

ويستفاد من هذا: أنَّ العالم إذا سُئل عن شيء لا يعلمه أن يقول: لا أعلمه، وأن ذلك لا ينقصه شيئاً.

وقول جبريل عليه السلام: فأخبرني عن أمارتها؛ يعني: عن علاماتها التي تدلُّ على اقترابها.

وقد ذكر النبيُّ ﷺ للساعة علامتين:

الأولى: (أن تلد الأمَةُ ربتها) والمراد بربتها: سيدتها ومالكتها.

وبيان هذا: أنَّ الأَمَة تكون رقيقة لسيِّدها، ولكن أولاده منها

---

(١) رواه البخاري (٤٠٥)؛ ومسلم (٥٥١).

(٢) رواه البخاري (٤٠٦)؛ ومسلم (٥٤٧).

(٣) رواه البخاري (٤٢٠٥)؛ ومسلم (٢٧٠٤).

يكونون بمنزلة أبيهم، فيكون ابنها منه بمنزلة أبيه، أي سيداً لأمِّهِ، وتكون البنت بمنزلة أبيها، أي سيدةً لأمها.

وقيل: معناه: أنَّ الإماء يلدن الملوك، وقد حصل هذا.

والعلامة الثانية: (أن ترى الحفاة العراة العالة ـ الفقراء ـ رعاء الشاء يتطاولون في البنيان).

وجاء في حديث حذيفة عند أحمد والترمذي؛ عن النبيِّ ﷺ، قال: **(لا تقوم الساعةُ حتَّى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع).**

وقد رأى الناس تحقق هذه العلامة بمعناها الماديِّ الذي هو التطاول في البنيان، كما رأوها بمعناها المعنوي؛ وهو أن أصبح رؤوس الناس جهالاً].

٦ ـ بيان وتفصيل:

تلك هي خلاصة شرح هذا الحديث، كما جاءت عند الحافظ ابن رجب، وجميل ذلك البيان الذي فرق به بين الإسلام والإيمان.

على أنَّ مكانة هذا الحديث تقتضي إضافة شرح وبيان، ولذلك فإنِّي أضيف فصلين:

الأول: عن الإحسان.

والثاني: عن الإسلام والإيمان والإحسان.

الفصل الأول: الإحسان

جاء في الحديث قوله ﷺ عن الإحسان: **(أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنَّه يراك)**.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فتقدير الحديث: فإن لم تكن تراه، فاستمرَّ على إحسان العبادة، فإنَّه يراك».

وقال: «هذا القدر من الحديث، أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمَّة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصِّدِّيقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأبُ الصالحين، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها النبي ﷺ»[1].

❁ ❁ ❁

هذه هي مكانة «الإحسان» حيث وصفه الرسول ﷺ: **(أن تعبد الله كأنك تراه...)**، وإذا علمنا أن «العبادة» في هذا الدِّين تشمل كلَّ أعمال الإنسان، أدركنا مدى الإحاطة والشمول التي تتناولها هذه الكلمات القليلة، إنَّها البلاغة النبوية، وإنها لمن جوامع الكلم.

---

(١) فتح الباري: ١/ ١٢٠.

إنه الارتقاء إلى حالة من الصفاء والإخلاص بحيث تكون «العبادة» خالصة له تعالى، خالية من كلِّ الشوائب.

والإحسان بهذا المعنى هو شعور الإنسان برقابة الله تعالى عليه، في كلِّ ما يصدر عنه من: الأقوال، والأعمال، والنيات. . .

وهذا يستلزم منه يقظة دائمة في رقابة ما يصدر عنه، بحيث يكون «الصادر» أهلاً أن يوصف بـ «الإحسان».

وبهذا الوصف يكون مقبولاً عند الله تعالى، طبقاً لما جاء في قوله ﷺ: (**إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة**[1]، **وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبح، وليحدَّ أحدُكم شفرتَه فليرِحْ ذبيحته**)[2].

فينبغي أن يكون الإحسان في كلِّ شيء، واختياره ﷺ «القتل» و«الذبح» لبيان الإحسان فيهما، هو في غاية الدقة والبيان ـ كيف لا وهو سيد البلغاء ـ فقد اختار ميداناً لا يتصور فيه الإحسان أصلاً، فبيَّن أنَّ القتل الذي لا يكون فيه تعذيب للمقتول هو من الإحسان، والذبح الذي ليس فيه تعذيب للحيوان هو من الإحسان، وإذا استطاع الإسلام أن يوصل الإحسان إلى هذا الميدان؛ فإعماله في بقية المجالات من باب أولى.

ـ فالإحسان بالقول مطلوب، بل قد دعا القرآن الكريم إليه فقال: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

ـ والإحسان بالعمل مطلوب، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**)[3].

---

(١) **القِتلة**: هي هيئة القتل وطريقته.

(٢) رواه مسلم (١٩٥٥).

(٣) مجمع الزوائد (٦٤٦٠).

وإحسان العمل جعله القرآن مناطَ النجاح في الابتلاء الذي كتبه الله على النَّاس، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فالمقصود من الابتلاء هو: ظهور إحسان الأعمال.

ـ وكان من دعائه ﷺ طلب التوفيق من الله تعالى لإحسان العبادة، فقد قال لمعاذ رضي الله عنه: **(أوصيك يا معاذ: لا تدعنَّ في دبر كلِّ صلاة أن تقول: اللهم أعنِّي على ذكرك، وشُكرِك، وحُسْنِ عبادتك)**[1].

فانظر إلى قوله ﷺ: **(وحُسْنِ عبادتك)**:

إنَّ الإحسان مطلوب في كل ميادين الحياة، ابتداء من كفِّ الأذى عن الطريق، وانتهاء بالعبادة، كما رأينا.

❁ ❁ ❁

وبعد: فما معنى الإحسان؟.

جاء في «القاموس»:

ـ الحُسْن ـ بالضم ـ: الجمال.

ـ والإحسان: ضد الإساءة، والحسنة: ضد السيئة.

ـ وهو يحسن الشيء إحساناً: أي يعلَمه.

ـ والحَسَنُ ـ محركة ـ: ما حَسُنَ من كل شيء.

وهكذا تجمع هذه المادة بين **«الجمال»** و**«الخير»** و**«العلم»**، وليس هناك من كلمة أخرى تقوم مقامها بهذا الأداء.

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)؛ والنسائي (١٣٠٢).

ولهذا اختارها الله سبحانه لتكون استحقاق الوالدين من الولد، عندما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقد ترددت هذه الكلمة ومشتقَّاتُها في القرآن الكريم أكثر من سبعين ومئة مرة، ممَّا له أكبر الدلالة على مكانة الإحسان عند الله تعالى.

❁ ❁ ❁

وبما أنَّ الإحسان إنَّما يتوصَّل إليه بالعبادة المؤدَّاة بشعور المراقبة، فإنَّ «الإخلاص» سيكون العنصر الأساسي فيه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«قد قيل: إنَّ الإحسان هو الإخلاص.

والتحقيق: أنَّ الإحسان يتناول الإخلاص وغيره، والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله تعالى، ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله تعالى.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فذكر إحسان الدِّين أولاً، ثم ذكر الإحسان ثانياً...»[1].

وواضح من كلام شيخ الإسلام أنه جعل «الإحسان» جامعاً لأمرين:

ـ كمال الإخلاص لله تعالى.

---

(١) الفتاوى: ٧/ ٦٢٢.

ـ الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبُّه الله تعالى.

ويحسن بنا أن نفصِّل بعض التفصيل لبيان هذين الأمرين.

❁ ❁ ❁

أما **الإخلاص فبيانه**: أنَّ كلَّ «شيء» ـ مادة كان أو معنى ـ يمكن أن يخالطه غيره من الشوائب، فإذا صفا عن هذه الشوائب وخلص منها سُمِّي خالصاً، ويسمَّى المصفَّى المخلَّص: «إخلاصاً»[1].

وإذا أطلق الإخلاص بمعناه الإسلامي: فالمقصود أن يكون الباعث على العمل الذي يقوم به الإنسان: هو ابتغاء مرضاة الله وحده، ولا يخالط هذا الباعث أيُّ أمر آخر من شهوات النفس وغيرها.

وقد ورد الأمر بالإخلاص في آيات كثيرة، منها:

ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

ـ وقوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤].

وللتعرُّف على الإخلاص لابد من أمرين:

١ ـ التعرف على «النية» التي يكمن فيها سرُّ الإخلاص.

٢ ـ تخليص هذه النية من الشوائب، والتعرُّف على هذه الشوائب حتَّى يحذرَها المسلمُ ليكون في مأمن من أن يحبط عمله.

• أما «النية»، فسيكون الحديث عنها في الحديث التالي وهو الحديث الثاني.

• وأما الشوائب التي قد تطرأ على النية فتشوِّه جمالها، وتعكِّر

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٤/ ٣٧٩.

صفاءها؛ فهي كثيرة، ومهمة «الإخلاص» هو تخليصها ممَّا تسرَّب إليها، والمحافظة على نقائها، وهو أمر يحتاج إلى جهد غير قليل.

ومن هذه الشوائب:

١ ـ الرياء:

وهذا أن يطلب الإنسان بالعبادة ـ أو العمل ـ المنزلة في قلوب النَّاس! وهذا من صفات المنافقين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وهو الشرك الأصغر، كما قال ﷺ: **(إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشِّرْك الأصغر)**، قالوا: وما الشِّرْك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **(الرِّياء، يقول الله ﷻ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟!)**[(١)].

وقال ﷺ: **(قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركتُه وشركَه)**[(٢)].

والأحاديث في هذا كثيرة.

٢ ـ رغبات النفس:

وقد لا يقوم الإنسان بالعمل ليراه النَّاس، ولكنَّه مع ذلك يرغب في التزيُّن عندهم، بطلب مدحهم، أو الهرب من ذمهم.

ويدلُّنا على هذه الرغبات، أسئلة الصحابة رضي الله عنهم المتكررة في هذا الصدد:

---

(١) أخرجه أحمد؛ والبيهقي؛ ورجاله ثقات، قاله العراقي في: تخريج الإحياء.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

فعن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله! رجل يريد الجهاد في سبيل الله، وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: **(لا أجرَ له)**، فأعظم ذلك النَّاس، وقالوا للرجل: عُدْ إلى رسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه، فقال: يا رسول الله! رجل يريد الجهاد في سبيل الله، وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال: **(لا أجرَ له)**، فقالوا للرجل: عُدْ لرسول الله ﷺ... فقال له في الثالثة: **(لا أجرَ له)**[1].

والحديث يبيِّن لنا الصورةَ واضحةً جلية، كيف كان حرص الصحابة ﷺ أن يكون جوابه ﷺ غير ما أجاب به، ولذلك طلبوا من الرجل أن يعود مرة بعد مرة ليكرِّر السؤال لعله يجد جواباً آخر.

والصحابة بشر من البشر، لهم رغبات، ولهم شهوات... ولكنَّهم كانوا يسمعون كلام رسول الله ﷺ فيُخضعون رغباتِهم وشهواتِهم لما يطلبه الله تعالى وما يطلبه رسوله ﷺ منهم.

وإذا كان هذا السائل قد خصَّ سؤاله بعرض الدنيا الماديِّ، فهناك سائل آخر نوَّع المسألة، فتناول ما يرغب به الناس عادة من مادة ومن معنى:

فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال أعرابيٌّ للنبيِّ ﷺ: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، ويقاتل ليرى مكانه ـ وفي رواية: يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء ـ فأيُّ ذلك في سبيل الله؟.

فقال ﷺ: **(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)**[2].

أي: ليس شيء مما ذُكِرَ في سبيل الله.

وهكذا ومن خلال أحاديثه ﷺ وبيانه، تعلَّم الصَّحابة كيف يكون

---

(١) رواه أبو داود (٢٥١٦)؛ والنسائي مثله عن أبي أمامة (٣١٤٠).

(٢) رواه البخاري (٣١٢٦، ٧٤٥٩)؛ ومسلم (١٩٠٤).

الإخلاصُ، وكيف يجاهدون نفوسهم، ويقاومون نزعاتها حتى يصلوا إلى صفاء العمل..

• والإخلاص من أعمال القلب، ولهذا فأمره مرتبط بصاحب العمل نفسه، وهو الذي يحكم على نفسه بالإخلاص أو عدمه، وليس هناك مقياس بأيدي الناس يقيسون به إخلاص شخص ما، إنما مردُّ ذلك له، فهي قضية تخصُّه أمام الله سبحانه[1].

❁ ❁ ❁

وأما الأمر الثاني الذي اعتبره شيخ الإسلام طريقاً «للإحسان» فهو الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبُّه الله تعالى.

ولبيان ذلك يحسن بنا أن نعود إلى القرآن الكريم، لنقف على الأمور التي ذكر الله ﷻ أنه يحبُّها، ونكتفي بما جاء مصرحاً به بلفظ: «الحب».

قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

---

(١) فقرة الإخلاص هذه عن كتاب: من معين الشمائل، للمؤلف، ص (١٦٠ ـ ١٦٦) باختصار، نشره المكتب الإسلامي.

فالإحسان، والتوبة، والطهارة، والتقوى، والصبر، والتوكُّل، والعدل، والجهاد في سبيل الله، كلُّها من محابِّ الله تعالى، وكلُّها أفعال حسنة، فمن اتَّصف بها فهو في مقام الإحسان.

الفصل الثاني: الإسلام والإيمان والإحسان

تلك هي أصول هذا الدِّين الحنيف.

وهناك سؤال يطرح نفسه، وهو: ألا يُكتفى بالأول منها حتى يكون المرء مسلماً، وتكتب له النَّجاة بذلك في الآخرة؟.

وللجواب على هذا السؤال، لا بدَّ من التذكير ببعض ما مضى.

فقد جاء في حديث جبريل قوله ﷺ: **(إنَّه جبريل، أتاكم يعلِّمكم دينكم)**.

فجعل النبيُّ ﷺ: الإسلام والإيمان والإحسان، هي الدِّين.

فهذه الثلاثة لا بدَّ منها لكلِّ من رضي بالإسلام ديناً، وهي من التشابك مع بعضها والتلازم بحيث لا يتصور كون المسلم مسلماً إذا كان مكتفياً بالأول منها.

إنَّ الشطر الأول من أركان الإسلام وهو: «شهادة أن لا إلٰه إلا الله»، لابد أن يستكمل حقيقته بوجود الركن الأول من أركان الإيمان، وهو: «الإيمان بالله».

فإذا قال الإنسان: «أشهد أن لا إلٰه إلا لله»، ولم يكن مؤمناً بحقيقة معناها ـ أي: لم يكن محقِّقاً للركن الأول من أركان الإيمان ـ كان منافقاً.

وكذلك «شهادة أن محمداً رسول الله»، لا يكون إعلانها كافياً إذا لم يكن قائلها مؤمناً بالرسل ومن جملتهم محمد رسول الله ﷺ، وهكذا

فالشطر الثاني من الشهادتين يستكمل حقيقته بالركن الرابع من أركان الإيمان، وهو «الإيمان بالرسل».

مصداق هذا قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

فهم كاذبون ـ وإن كان قولُهم مطابقاً للحقيقة ـ لعدم اعتقادهم بذلك.

وبهذا يتبيَّن الارتباط الوثيق بين الإسلام والإيمان.

❁ ❁ ❁

ويترتَّب على الإسلام والإيمان أعمال لا بدَّ من القيام بها، ولا بدَّ أن تكون خالصةً لله، وقد رأينا أن «الإحسان» يقتضي أن تعبد الله كأنك تراه.. وهذا لا يكون إلا بإخلاص النية والقصد.

وحينما تكون «النيةُ» مشوبةً وغير خالصة، أو غير متساوقة مع ظاهر العمل أصلاً فإن ذلك يفسد العمل.

وهذا ما يوضِّح صلة «الإحسان» بـ «الإسلام والإيمان».

❁ ❁ ❁

وإذا كانت الأواصر وشيجة بين هذه الأصول إلى هذه الدرجة، فلماذا هذا التقسيم؟.

أقول: من المقرر: أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي.

فالمسلم يظلُّ مسلماً ما دام في قلبه «الإيمان» الذي يفرق بينه وبين المنافق، فإذا أكبَّ على الطاعات واجتنب المعاصي فإنَّه يترقَّى في الإيمان حتَّى يبلغ الدرجات العلا فيه.. فيكون مؤمناً.. وقد جاء في الحديث الشريف: قوله ﷺ: **(الإيمان بضع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ**

شعبة، فأفضلها: قول لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[١].

وإذا خَلَت هذه الأعمال التي يقوم بها المؤمن من الشوائب، وكانت تحت المراقبة، وفي ظلال (**فإنه يراك**) ارتقى إلى درجة الإحسان.

ويكون عندها كما قال تعالى في الحديث القدسي: (**من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه: كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه...**)[٢].

إنَّ قوله: (**كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به**) يوضِّح حال العبد عندما يكون مؤهَّلاً ليكون من أهل الإحسان: (**أن تعبد الله كأنك تراه...**).

❁ ❁ ❁

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«جعل النبي ﷺ الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام.

فكلُّ محسن مؤمن، وكلُّ مؤمن مسلم، وليس كلُّ مؤمن محسناً، ولا كلُّ مسلم مؤمناً»[٣].

---

(١) رواه مسلم (٣٥).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) الفتاوى: ٧/ ٧.

وهذا كلام صحيح باعتبار النظرة الكُلِّية، فمن كان في درجة الإحسان فلا شكَّ بأنه استكمل درجة الإيمان أو قارب.

ولكن هذا لا يعني أبداً أنَّ المسلم الذي لم نطلق عليه كلمة «مؤمن» أنه خالٍ من الإيمان، وأن أعماله ليس فيها إحسان، بل عنده شيء من كل منهما، ولكن هذا الشيء لا يؤهله لحمل اسم تلك الدرجة.

❁ ❁ ❁

وكما أن الطاعات ترتقي بالمسلم من الإسلام إلى الإيمان، ثم إلى الإحسان، فإنَّ الذنوب تسبب الحركة المقابلة، وهي حركة الهبوط.

ويسجل لنا الإمام ابن القيم هذه الحركة فيقول:

«ومن عقوبات الذنوب أنَّها تخرج العبد من دائرة «الإحسان»، وتمنعه من ثواب المحسنين، فإنَّ الإحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه، لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده.

فإذا خرج من دائرة «الإحسان».. فإن أراد الله به خيراً أقره في دائرة عموم المؤمنين.

فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة «الإيمان» كما قال ﷺ: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)**[1] فاتته رفقة المؤمنين، وخرج من دائرة الإيمان، وخسر دفاع الله عن المؤمنين، فإنَّ الله يدافع عن الذين آمنوا، وفاته كلُّ خير رتَّبه الله في كتابه على الإيمان، وهو نحو مئة خصلة.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥)؛ ومسلم (٥٧).

وكل خير في الدُّنيا والآخرة فسببه الإيمان، فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئاً يخرجه من دائرة الإيمان، ويحول بينه وبينه، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين.

فإن استمر على الذنوب، وأصرَّ عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية»[١].

وقال الإمام ابن تيمية في تعليقه على حديث: **(لا يزاني الزاني حين يزني وهو مؤمن)**:

«نقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يُعطى الاسم المطلق ـ أي اسم: مؤمن ـ ولا يُسلب مطلق الاسم»[٢].

قال الإمام ابن القيم:

«وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل يوافق فيه الإسلامُ الإحسانَ.

والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم، وحقائق الإيمان على بواطنهم، ولا يُقبل واحد منهما إلا بصاحبه وقرينه.

وفي المسند مرفوعاً: **(الإسلام علانية، والإيمان في القلب)**.

فكلُّ إسلام ظاهر، لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة، فليس بنافع حتَّى يكون معه شيء من الإيمان الباطن.

وكلُّ حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة، لا تنفع ولو كانت ما كانت.

فلو تمزَّق بالمحبة والخوف، ولم يتعبَّد بالأمر وظاهر الشرع، لم يُنْجِه ذلك من النار.

---

(١) الجواب الكافي، للإمام ابن القيم، الفصل (٣٠).

(٢) الرسالة الواسطية.

كما أنَّه لو قام بظواهر الإسلام، وليس في باطنه حقيقة الإيمان، لم يُنْجِه ذلك من النار»[١].

وخلاصة القول: إنَّ الإسلام والإيمان والإحسان هي «الدِّين»، والترابط بينها وثيق، وللطاعات والمعاصي أثرها في ازدياد الإيمان ونقصانه[٢].

(١) الفوائد، الفصل (٧٧).

(٢) هذا الفصل والذي قبله من كتاب: رضيت بالإسلام ديناً، للمؤلف.

الحديث الثاني
إنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ

عَنْ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ:

(إنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإنَّما لِكُلِّ امرئ مَا نَوى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيا يُصِيبُها، أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إليْه).

رواه البخاريُّ ومسلم[١]

❁ ❁ ❁

- **مكانة الحديث:**

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»:

«قد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث.

قال أبو عبد الله ـ البخاريُّ ـ: ليس في أخبار النبيِّ ﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث.

واتَّفق عبد الرحمن بن مهديٍّ، والشافعيُّ، وأحمد بن حنبل، وعليُّ بن المديني، وأبو داود، والترمذي، والدارقطني، وحمزة الكناني: على أنَّه ثلث الإسلام. واختلفوا في تعيين الباقي.

---

(١) رواه البخاري (٦٩٥٣)؛ ومسلم (١٩٠٧).

وقال ابن مهديٍّ أيضاً: يدخل في ثلاثين باباً من العلم.

وقال الشافعيُّ: يدخل في سبعين باباً. ويحتمل أنَّه يريد بهذا العدد المبالغة.

وقال ابن مهديٍّ أيضاً: ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب.

ووجَّهَ البيهقيُّ كونه ثلث العلم: بأنَّ كَسْبَ العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها، لأنَّها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها يحتاج إليها، ومن ثم ورد: «نية المؤمن خير من عمله» فإذا نظرتَ إليها كانت خير الأمرين.

وكلام الإمام أحمد يدل على أنه أراد بكونه «ثلث العلم» أنَّه أحد القواعد الثلاث التي ترد إليها جميع الأحكام عنده؛ وهي: هذا الحديث، وحديث: (**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**)، وحديث: (**الحلال بيِّن والحرام بيِّن**)» اهـ. فتح الباري.

● **شرح الحديث:**

١ ـ قوله ﷺ: (إنَّما الأعمال بالنِّيَّات):

[هذا يقتضي الحصر، وقد اختلفوا في تقدير قوله: (**الأعمال بالنِّيَّات**):

ـ فكثير من المتأخِّرين يزعم أن تقديره: الأعمال صحيحة أو معتبرة ومقبولة بالنيات. وعلى هذا فـ «الأعمال» إنَّما أريد بها الأعمال الشرعية، المفتقرة إلى النية، فأمَّا ما لا يفتقر إلى نية، كالعادات من الأكل والشرب واللبس وغيرها، أو مثل رد الأمانات والودائع؛ فلا يحتاج شيء من ذلك إلى نية، فيخص هذا كله من عموم الأعمال المذكورة هاهنا.

ـ وقال آخرون: بل الأعمال هاهنا على عمومها، لا يختص منها شيء.

قال الإمام أحمد: أحبُّ لكل من عمل عملاً، من صلاة أو صيام أو صدقة، أو نوع من أنواع البر، أن تكون النيةُ متقدمة في ذلك قبل الفعل، قال النبي ﷺ: (**الأعمال بالنِّيَّات**).

فهذا يأتي على كل أمر من الأمور[1].

٢ ـ قوله ﷺ: (وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى):

هذا إخبار عن حكم الشرع: أنه لا يحصل للمرء من عمله إلا ما نواه به، فإن نوى خيراً حصل له خير، وإن نوى شرّاً حصل له شرٌّ.

وليس هذا تكريراً محضاً للجملة الأولى.

فإنَّ الجملة الأولى دلَّت على أن صلاح «العمل» وفساده بحسب النية المقتضية لإيجاده.

والجملة الثانية دلَّت على أن ثواب «العامل» على عمله بحسب نيته الصالحة، وأنَّ عقابه عليه بحسب نيته الفاسدة، وقد تكون نيته مباحة، فيكون العمل مباحاً فلا يحصل له ثواب ولا عقاب.

فالعمل ـ في نفسه ـ صلاحه وفساده وإباحته، بحسب النية الحاملة عليه المقتضية لوجوده.

وثواب العامل وعقابه وسلامته، بحسب النية التي صار بها العمل صالحاً أو فاسداً أو مباحاً.

٣ ـ المقصود بالنِّيَّة:

النية في اللغة: نوع من القصد والإرادة.

---

(١) هذا ما ذهب إليه ابن رجب رحمه الله؛ حيث رأى أنَّ قول الإمام أحمد يؤيد القول الثاني، ولكن الأمثلة التي جاءت في هذا القول تؤكد ما ذهب إليه أصحاب الرأي الأول.

والنية في كلام العلماء: تقع على معنيين:

ـ **أحدهما**: تمييز العبادات بعضها عن بعض؛ كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلاً، وتمييز صيام رمضان من صيام غيره، أو تمييز العبادات عن العادات؛ كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرُّد والتنظيف ونحو ذلك.

وهذه النية هي التي توجد كثيراً في كلام الفقهاء في كتبهم.

ـ **المعنى الثاني**: بمعنى تمييز المقصود بالعمل، وهل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره.

وهذه هي **النية التي يتكلم فيها العارفون** في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيراً في كلام السلف المتقدمين.

وهذه النية هي التي يتكرَّر ذكرها في كلام النبيِّ ﷺ تارة بلفظ «النية»، وتارة بلفظ «الإرادة»، وتارة بلفظ مقارب لذلك.

وقد جاء ذكرها كثيراً في كتاب الله ﷻ بغير لفظ النية أيضاً من الألفاظ المقاربة لها.

ومن ذلك ما جاء بلفظ «الإرادة»:

كقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . . .﴾ [هود: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٨].

وقد يعبِّر عنها القرآن الكريم بلفظ «الابتغاء»:

كقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقد جاء هذا المعنى الثاني في السُّنَّة وفي كلام السلف كثيراً، ومن ذلك:

قوله ﷺ: **(يخسف بأوَّلهم وآخرهم، ثم يبعثون على نيَّاتهم)** متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقوله ﷺ: **(يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نِيَّته)** رواه مسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

٤ ـ قوله ﷺ: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله...):

لما ذكر ﷺ أنَّ الأعمال بحسب النيات، وأنَّ حظ العامل من عمله نيته من خير أو شر، وهاتان كلمتان جامعتان وقاعدتان كليتان لا يخرج عنهما شيء، ذكر بعد ذلك مثالاً من الأمثال والأعمال التي صُورتها واحدة، ويختلف صلاحها وفسادها باختلاف النِّيَّات، وكأنه يقول: سائر الأعمال على حذو هذا المثال:

وأصل الهجرة: هجران بلد الشرك والانتقال منه إلى دار الإسلام، كما كان المهاجرون قبل فتح مكة يهاجرون منها إلى مدينة النبيِّ ﷺ، وقد هاجر من هاجر منهم قبل ذلك إلى النجاشيِّ في أرض الحبشة.

فأخبر ﷺ أنَّ هذه الهجرة تختلف باختلاف المقاصد والنيات بها:

فمن هاجر إلى دار الإسلام حبّاً لله ورسوله، ورغبةً في تعلُّم دين الإسلام، وإظهار دينه حيث كان يعجز عنه في دار الشرك؛ فهذا هو

المهاجر إلى الله ورسوله حقّاً، وكفاه شرفاً وفخراً أن حصل له ما نواه من هجرته إلى الله ورسوله.

ولهذا المعنى اقتصر في جواب هذا الشرط على إعادته بلفظه، لأنَّ حصول ما نواه بهجرته نهاية المطلوب في الدنيا والآخرة.

ومن كانت هجرته من دار الشرك إلى دار الإسلام ليطلب دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها في دار الإسلام؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه من ذلك، فالأول تاجر، والثاني خاطب، وليس واحد منهما بمهاجر.

وفي قوله ﷺ: **(فهجرته إلى ما هاجر إليه)** تحقير لما يطلبه من أمر الدنيا، واستهانة به، حيث لم يذكره بلفظه.

وأيضاً: إنَّ الهجرة إلى الله ورسوله واحدة فلا تعدُّد فيها، فلذلك أعاد الجواب فيها بلفظ الشرط. والهجرة لأمور الدنيا لا تنحصر، فلذلك قال: **(فهجرته إلى ما هاجر إليه)** يعني كائناً ما كان.

وسائر الأعمال كالهجرة في هذا المعنى، فصلاحها وفسادها بحسب النِّيَّة الباعثة عليها؛ كالجهاد والحج وغيرهما.

وفي «**الصحيحين**»: عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، قال: قال أعرابيٌّ للنبيِّ ﷺ: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، ويقاتل ليُرى مكانه، مَنْ في سبيل الله؟ فقال: **(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)**.

٥ ـ كيفية النية:

قال الفضل بن زياد: سألتُ أحمد بن حنبل عن النية في العمل، قلتُ: كيف النية؟ قال: يعالج نفسه إذا أراد عملاً، لا يريد به النَّاس.

وحدَّث يزيد بن هارون بحديث عمر: **(الأعمال بالنيات)** وأحمد جالس، فقال أحمد ليزيد: يا أبا خالد، هذا الخناق[1].

وقال يحيى بن أبي كثير: تعلَّموا النية؛ فإنَّها أبلغُ من العمل.

وقال سفيانُ الثوريُّ: ما عالجتُ شيئاً أشد عليَّ من نيتي؛ لأنَّها تنقلب عليَّ.

وقال يوسف بن أسباط: تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد].

أقول: فهذه الأقوال تدل على أن تصحيح النية وتصفيتها من الشوائب يحتاج إلى بذل جهد، وفي هذا المعنى قال سهل بن عبد الله: ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص، لأنَّه ليس لها فيه نصيب.

٦ ـ النية والعمل:

[واعلم أنَّ العمل على أقسام:

ـ أحدها: أن يكون رياء محضاً، بحيث لا يراد به سوى مراءاة المخلوقين لغرض دنيويٍّ، كحال المنافقين في صلاتهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة، والحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة التي يتعدَّى نفعها، فإنَّ الإخلاص فيها عزيز.

وهذا العمل لا يشكُّ مسلم أنَّه حابط، وأنَّ صاحبه يستحقُّ المقت من الله والعقوبة.

ـ الثاني: أن يكون العمل لله ويشاركه الرياء:

---

(١) **الخناق:** الأمر الشديد.

فإن شاركه في أصله، فالنصوص الصحيحة تدلُّ على بُطلانه وحبوطه. وفي «**صحيح مسلم**»: عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ، قال: (**يقول الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّركِ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري، تركتُهُ وشركَه**).

وممن يُروى عنه أن العمل إذا خالطه شيء من الرياء كان باطلاً طائفة من السلف، منهم: عبادة بن الصَّامت، وأبو الدرداء، والحسن، وسعيد بن المسيب وغيرهم. ولا نعرف عن السلف في هذا خلافاً.

ـ الثالث: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرياء؛ فلا يضره.

فإن كان خاطراً ودفعه فلا يضره بلا خلاف، فإن استرسل معه، فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السَّلَف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبريُّ، وأرجو أنَّ عمله لا يبطل بذلك، وأن يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره.

ـ الرابع: وأما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك، لم يضرَّه ذلك.

وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر ـ عند مسلم ـ، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه سئل عن الرجل يعمل العمل لله من الخير، يحمده النَّاس عليه، فقال: (**تلك عاجل بشرى المؤمن**)].

٧ ـ شروط صحة العمل:

أقول: وردت أقوال كثيرة عن السلف تبين صفات العمل المقبول؛ ومن ذلك:

قال ابن عجلان: لا يصلح العمل إلا بثلاث: التقوى لله، والنية الحسنة، والإصابة.

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]؛ قال: أخلصه وأصوبه، وقال: إنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون: خالصاً صواباً، قال: والخالص: إذا كان لله ﷻ، والصواب إذا كان على السُّنَّة.

وخلاصة القول: أنَّ العمل لا يتم إلا بأمرين:

أحدهما: أن يكون العمل في ظاهره على موافقة السُّنَّة.

والثاني: أن يكون العمل في باطنه يقصد به وجه الله ﷻ.

٨ ـ النية عند الفقهاء:

[مسائل النية المتعلقة بالفقه كثيرة جدّاً، والمعنى الذي يقصدونه هو: تمييز العبادات عن العادات، وتمييز العبادات بعضها عن بعض.

فإنَّ الإمساك عن الأكل والشرب يقع تارة حِمْيَةً، وتارة لعدم القدرة على الأكل، وتارة تركاً للشهوات لله ﷻ، فيحتاج الصيام إلى نيَّةٍ ليتميَّز بذلك عن ترك الطعام على غير هذا الوجه.

وكذلك العبادات كالصلاة والصيام، منها فرض، ومنها نفل، والفرض يتنوَّع أنواعاً، فإنَّ الصلوات المفروضات خمس صلوات في كلِّ يوم وليلة، والصيام الواجب تارة يكون صيام رمضان، وتارة يكون كفارة أو عن نذر، ولا يتميز هذا كله إلا بالنية.

وكذلك الصدقة تكون نفلاً وتكون فرضاً، والفرض منه زكاة ومنه كفارة، ولا يتميّز ذلك إلا بالنية.

وذهب بعضهم إلى أن صيام رمضان لا يحتاج إلى نية بالكلية لتعيُّنه بنفسه، إذ لا يصحُّ صيام غير رمضان في أيام رمضان... وللفقهاء تفصيل في ذلك مرجعه كتب الفقه].

٩ ـ هل يتلفَّظ بالنِّيَّة؟:

[النية هي قصد القلب، ولا يجب التلفظ بما في القلب في شيء من العبادات؛ واختلف المتأخِّرون من الفقهاء في التلفظ بالنية، فمنهم من استحبَّه، ومنهم من كرهه، ولا نعلم في هذه المسألة نقلاً خاصّاً عن السلف، ولا عن الأئمة إلا في الحج وحده.

وصحَّ عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّه سمع رجلاً يقول عند إحرامه: اللهم إنِّي أريد الحج والعمرة، فقال له: أتعلِّم النَّاس؟! أوليس الله يعلم ما في نفسك؟!.

ونصَّ مالك على مثل هذا، وأنَّه لا يستحبُّ له أن يسمِّي ما أحرم به.

وقال أبو داود: قلتُ لأحمد: أتقول قبل التكبير ـ يعني في الصلاة ـ شيئاً؟ قال: لا.

وهذا قد يدخل فيه أنه لا يتلفظ بالنية].

قال الإمام ابن القيم: «كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة قال: الله أكبر، ولم يقل شيئاً قبلها، ولا تلفظ بالنية البتة... ولم ينقل عنه أحد قط بإسناد صحيح ولا ضعيف، ولا مسند ولا مرسل، لفظة واحدة... بل ولا عن أحد من أصحابه، ولا استحسنه أحد من التابعين، ولا الأئمة الأربعة»[1].

---

(١) الهدي النبوي في العبادات، ص ٦٥، نشره المكتب الإسلامي.

١٠ ـ مهاجر أم قيس:

قال الحافظ ابن حجر: قصة مهاجر أم قيس رواها سعيد بن منصور.

عن أبي وائل، عن ابن مسعود، قال: كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها: أم قيس، فأبتْ أن تزوجه حتى يهاجر، فهاجر فتزوَّجها، وكنَّا نسمِّيه مهاجر أم قيس.

قال ابن مسعود: من هاجر لشيء فهو له.

ورواه الطبراني: عن الأعمش، وإسناده على شرط الشيخين.

لكن ليس فيه أن حديث الأعمال سيق بسبب ذلك، ولم أرَ في شيء من الطرق ما يقتضي التصريح بذلك.

وقال الحافظ ابن رجب: وقد اشتهر أنَّ قصة مهاجر أم قيس كانت سبب الحديث، وذكر ذلك كثير من المتأخِّرين في كتبهم، ولم نر لذلك أصلاً يصحُّ، والله أعلم.

أقول: فالقصة حدثت بعد وفاته ﷺ وعلَّق عليها ابن مسعود، واشتهرت بناء على ذلك.

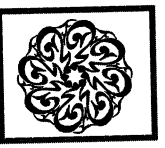

الحديث الثالث
مَنْ عَمِلَ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا

عَنْ أُمِّ المُؤْمنينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

(مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ).

رواه البخاري ومسلم

وفي رواية لمسلم: **(مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)**[1].

❁ ❁ ❁

- **منزلة الحديث:**

هذا الحديث أصل من أصول الإسلام، وجميع الذين قالوا: إنَّ حديث **(الأعمال بالنِّيَّات)** هو الأصل الأول، قالوا: إن هذا الحديث هو الأصل الثاني. كما سبق ذكر ذلك.

فحديث **(الأعمال بالنِّيَّات)** يضبط الأعمال في باطنها، وهذا يضبطها في ظاهرها.

فكما أنَّ كلَّ عمل لا يُراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كلُّ عمل لا يكون على وفق ما أمر الله تعالى به وما أمر به رسوله ﷺ فهو مردود على عامله.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)؛ ومسلم (١٧١٨).

● **شرح الحديث:**

١ ـ قاعدة عامة:

[القاعدة العامة في هذا الدِّين: أنَّ أعمال المسلم كلها ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة، فتكون الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها؛ فمن كان عمله جارياً تحت أحكام الشريعة موافقاً لها فهو مقبول، ومن كان خارجاً عن ذلك فهو مردود.

وهذا الحديث، يدلُّ بمنطوقه: على أنَّ كلَّ عمل ليس على أمر الشرع فهو مردود. ويدلُّ بمفهومه: على أنَّ كلَّ عمل على أمر الشرع فهو غير مردود.

والمراد بـ (أمرنا) في الحديث: أي ديننا وشرعنا.

فالمعنى: أنَّ كلَّ من كان عمله خارجاً عن الشرع ليس متقيِّداً به فهو مردود.

ومعنى (أحدث): أي أنشأ واخترع من قِبَل نفسه أمراً غير معهود، ولا أصل له في الشرع يؤيِّده.

وقد ورد هذا المعنى في أحاديث أخرى:

قال ﷺ ـ في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه ـ: **(وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ)** رواه أبو داود وغيره.

وروى مسلم قوله ﷺ: **(إنَّ أصدقَ الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها)**.

٢ ـ قوله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد):

هذا تحذير للأمَّة من اتباع الأمور المحدثة، وهي ما أُحدث ممَّا لا أصل له في الشريعة يدلُّ عليه، وقد يطلق عليه اسم: البدعة.

الحديث من جوامع الكلم، وهو أصل من أصول الدين، كما سبق القول في ذلك فكلُّ من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدِّين، ولم يكن له أصل من الدِّين يرجع إليه؛ فهو رد، وهو ضلالة، والدِّين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات، أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة.

والمحدثات ضربان:

ـ ما أحدث ممَّا يخالف كتاباً، أو سُنَّةً، أو أثراً، أو إجماعاً، فهذا بدعة ضلالة.

ـ وما أحدث فيه من الخير، ممَّا لا خلاف فيه لواحد من هذا، وهذا محدثة غير مذمومة. ككثير من الأمور التي أحدثت وفيها مصلحة ظاهرة تؤيِّدها النصوص العامة.

فمنها: كتابة الحديث؛ وقد نهى عنه عمر وطائفة من الصحابة، ورخَّص فيه الأكثرون، واستدلوا بأحاديث من السُّنَّة.

ومنها: كتابة تفسير الحديث والقرآن؛ كرهه قوم من العلماء، ورخَّص فيه كثير منهم.

وفي هذه الأزمان التي بَعُدَ العهد فيها بعلوم السَّلف، يتعين ضبط ما نقل عنهم من ذلك كله، ليتميز به ما كان من العلم موجوداً في زمانهم، وما حدث من ذلك بعدهم، فيعلم بذلك السُّنَّة من البدعة.

وممَّا حدث في الأمة بعد عصر الصحابة والتابعين الكلام في الحلال والحرام بمجرد الرأي، وردُّ كثيرٍ ممَّا وردت به السُّنَّة في ذلك لمخالفته للرأي والأقيسة العقلية. وهذا مما يردُّ].

٣ ـ قوله ﷺ: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ):

[الأعمال التي ورد ذكرها هنا نوعان: عبادات، ومعاملات.

● **فأما العبادات:**

١ ـ فما كان منها خارجاً عن حكم الله ورسوله بالكلية فهو مردود على عامله، وعامله تحت قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

فمن تقرَّب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قُربةً إلى الله، فعمله باطل مردود عليه. وهو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية، وهذا كمن تقرَّب إلى الله بسماع الملاهي أو بالرقص، وكذلك من تقرَّب بعبادة نُهي عنها بخصوصها؛ كمن صام يوم العيد، أو صلى وقت النهي.

٢ ـ وأما من عمل عملاً أصله مشروع وقُربة، ثم أدخل فيه ما ليس بمشروع، أو أخلَّ فيه بمشروع، فهذا أيضاً مخالف للشريعة بقدر إخلاله بما أخلَّ به، أو إدخاله ما أدخل فيه. و[هل] يكون عمله من أصله مردوداً عليه أم لا؟.

فهذا لا يطلق القول فيه بردٍّ ولا قبول، بل ينظر فيه:

فإن كان ما أخلَّ به من أجزاءِ العمل أو شرطه، موجباً لبطلانه في الشريعة ـ كمن أخلَّ بالطهارة للصلاة مع القدرة عليها، أو كمن أخلَّ بالركوع أو السجود أو بالطمأنينة فيهما ـ فهذا عمله مردود عليه، وعليه إعادته إن كان فرضاً.

وإن كان ما أخلَّ به لا يوجب بطلان العمل ـ كمن أخلَّ بالجماعة للصلاة المكتوبة عند من يوجبها ـ فهذا لا يقال: إن عمله مردود من أصله، بل هو ناقص.

وإن كان قد زاد في العمل المشروع ما ليس بمشروع، فزيادته مردودة عليه، بمعنى أنَّها لا تكون قربة ولا يُثاب عليها، ولكن تارة

يبطل بها العمل من أصله فيكون مردوداً، كمن زاد ركعة عمداً في صلاته مثلاً، وتارة لا يبطله ولا يرده من أصله؛ كمن توضأ أربعاً أربعاً، أو صام الليل مع النهار، وواصل في صيامه، فهذا قد اختلف العلماء فيه، وأكثر الفقهاء على أنه ليس بمردود من أصله.

● **وأما المعاملات:**

كالعقود والفسوخ ونحوهما:

١ ـ فما كان منها مغيراً للأوضاع الشرعية، كجعل حد الزنى عقوبة مالية، وما أشبه ذلك؛ فهذا مردود من أصله، لأنه غير معهود في أحكام الإسلام.

٢ ـ وما كان منها عقداً منهيّاً عنه في الشرع؛ لفوات شرط فيه، وما أشبه ذلك؛ فهذا محلُّ اختلاف بين الفقهاء].

٤ ـ خلاصة القول:

أقول: هذا الحديث الشريف، متمِّم لحديث: **(إنَّما الأعمال بالنيات)**.

فهذا: يضبط ظاهر العمل، بحيث يكون متوافقاً مع أحكام الشريعة وأوامرها، بعيداً عن منهياتها.

والآخر: يضبط باطن العمل والباعث عليه.

الحديث الرابع
الحَلَالُ بَيِّنٌ

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيْرٍ رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

(إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ، كالرَّاعي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيْهِ، أَلا وإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى؛ أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ القَلْبُ). رواه البخاري ومسلم(١)

❁ ❁ ❁

- **مكانة الحديث:**

رأينا كيف عدَّ الإمام أحمد ـ في إحدى الروايتين عنه ـ هذا الحديث في المرتبة الثالثة بين أحاديث الأصول، وعدَّه إسحاق في المرتبة الثانية، وعدَّه أبو داود أحد أربعة أحاديث تدور عليها الأحكام.

قال الحافظ ابن حجر: «وأشار ابن العربي إلى أنه يمكن أن ينتزع منه وحده جميع الأحكام. قال القرطبي: لأنَّه اشتمل على التفصيل بين

---

(١) رواه البخاري (٥٢)؛ ومسلم (١٥٩٩).

الحلال وغيره، وعلى تعلُّق جميع الأعمال بالقلب، فمن هنا يمكن أن تردَّ جميع الأحكام إليه».

● **شرح الحديث:**

١ ـ قوله ﷺ: (الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ):

[معناه: أنَّ الحلال المحض ـ وهو ما أحلَّه الله وأباحه ـ بيِّنٌ واضح لا اشتباه فيه، وكذلك الحرام المحض ـ وهو ما قام الدليل على تحريمه ـ بيِّنٌ واضح لا اشتباه فيه.

ـ فأما الحلال المحض، فمثل: أكل الطيبات من الزروع والثمار، وبهيمة الأنعام، وشرب الأشربة الطيبة، ولباس ما يحتاج إليه من القطن والكتان والصوف... وكل ما اكتُسِبَ بعقد صحيح كالبيع، أو بميراث أو هبة.

ـ وأما الحرام المحض، فمثل: أكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وشرب الخمر، ونكاح المحارم، ولبس الحرير للرجال، ومثل: اكتساب المحرم، كالربا والميسر، وثمن ما لا يحل بيعه، وأخذ الأموال المغصوبة بسرقة أو غصب أو تدليس ونحو ذلك.

٢ ـ قوله ﷺ: (بينهما أمورٌ مشتبهاتٌ):

المشتبه: هو ما اختلف في حلِّه أو تحريمه.

ـ إما من الأعيان: كأكل الخيل والبغال والحمير والضب، وشرب ما اختلف في تحريمه من الأنبذة التي يسكر كثيرها، ولبس ما اختلف في إباحته من جلود السباع ونحوها.

ـ وإما من المكاسب المختلف فيها: كمسائل العينة والتورُّق ونحو ذلك، وبيع العينة: أن يشتري بضاعة من تاجر إلى أجل بثمن متفق

عليه، ثم يبيعها إلى ذلك التاجر نفسه نقداً، وذلك دون أن يستلم البضاعة، فرأى أكثر الفقهاء أن هذا تحايل على الربا.

٣ ـ قوله ﷺ: (لا يعلمهنَّ كثير من النَّاس):

الأمور المشتبهة لا يعلمها كثير من الناس، ولكن الراسخين في العلم لا تشتبه عليهم، ويعلمون من أي القسمين هي.

وحاصل الأمر: أنَّ الله تعالى أنزل على نبيِّه الكتاب، وبيَّن فيه للأمَّة ما تحتاج إليه من حلال وحرام، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، قال مجاهد وغيره: كلُّ شيء أُمِرُوا به ونُهوا عنه.

ووَكَلَ بيانَ ما أشكل من التنزيل إلى الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وما قبض رسول الله ﷺ حتى أكمل له ولأمته الدِّين، ولهذا أنزل عليه قبل موته بمدة قصيرة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال ﷺ: **(قد تركتُكم على البيضاء؛ ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)**(١).

وفي الجملة: فما ترك الله ورسوله حلالاً إلَّا مبيَّناً، ولا حراماً إلا مبيَّناً، لكن بعضه كان أظهر بياناً من بعض، فما ظهر بيانه واشتهر وعُلِمَ من الدِّين بالضرورة من ذلك لم يبقَ فيه شكٌّ، ولا يُعذر أحدٌ بجهله في بلد يظهر فيه الإسلام.

---

(١) رواه أحمد (١٧١٤٢)؛ وابن ماجه (٤٣)؛ وصححه الألباني.

وما كان بيانه دون ذلك:

• **فمنه**: ما يشتهر بين حملة الشريعة خاصَّة، فأجمع العلماء على حلِّه أو حرمته، وقد يخفى على بعض من ليس منهم.

• **ومنه**: ما لم يشتهر بين حملة الشريعة أيضاً، فاختلفوا في تحليله وتحريمه؛ وذلك لأسباب:

ـ منها: أنه قد يكون النصُّ عليه خفيّاً، لم ينقله إلا قليل من الناس، فلم يبلغ جميع حملة العلم.

ـ ومنها: أنَّه قد يُنقل فيه نصَّان، أحدهما بالتحليل، والآخر بالتحريم، فبلغ طائفة منهم أحد النصَّيْنِ دون الآخر، فيتمسَّكون بما بلغهم، أو يبلغ الناسَ النصَّان معاً ولم يبلغهم التاريخ، فيقف لعدم معرفة الناسخ من المنسوخ.

ـ ومنها: ما ليس فيه نصٌّ صريح، وإنما يؤخذ من عمومٍ أو مفهومٍ أو قياسٍ، فتختلف فيه أفهام العلماء.

ـ ومنها: ما يكون فيه أمر أو نهي، فيختلف في حمل الأمر على الوجوب، أو الندب، وفي حمل النهي على التحريم، أو التنزيه.

ومع هذا، فلابد في الأمَّة من عالم يوافق الحقَّ، فيكون هو العالم بهذا الحكم، وغيره يكون الأمر مشتبهاً عليه. فإنَّ الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يظهر أهل باطلها على أهل حقِّها، فلا يكون الحقُّ مهجوراً غير معمول به في جميع الأمصار والأعصار.

ولهذا قال ﷺ في المشتبهات: **(لا يعلمهنَّ كثيرٌ من النَّاس)**، فدلَّ على أنَّ من النَّاس من يعلمها، وإنَّما هي مشتبهة على من لم يعلمها، وليست مشتبهة في نفس الأمر.

٤ ـ قوله ﷺ: (فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام):

قسم الحديث النَّاس في الأمور المشتبهة إلى قسمين، وهذا إنما هو بالنسبة إلى من هي مشتبهة عليه وهو ممَّن لا يعلمها.

فأمَّا من كان عالماً بها واتَّبع ما دلَّه علْمُه عليها؛ فذلك قسم ثالث لم نذكره لظهور حُكمه، فإنَّ هذا القسم أفضل الأقسام الثلاثة.

وأما من لم يعلم حكم الله فيها فهم قسمان:

● **أحدهما**: من يتقي هذه الشبهات لاشتباهها عليه؛ فهذا قد استبرأ لدينه وعرضه.

ومعنى **(استبرأ)**: طلب البراءة لدينه وعرضه من النقصان والشَّيْنِ.

والعرض: هو موضع المدح والذمِّ من الإنسان، وما يحصل له بذكره بالجميل: مدح، وبذكره بالقبيح: قدح. وقد يكون ذلك تارة في نفس الإنسان، وتارة في سلفه، أو في أهله.

فمن اتَّقى الأمور المشتبهة واجتنبها فقد حصَّن عرضه من القدح والشَّيْنِ الداخل على من لا يجتنبها.

وفي هذا دليل على أنَّ من ارتكب الشبهات فقد عرَّض نفسه للقدح فيه والطعن.

● **القسم الثاني**: من يقع في الشبهات مع كونها مشتبهة عليه؛ وهذا قد أخبر النبيُّ ﷺ أنَّه وقع في الحرام. وهذا يفسَّر بمعنيين:

ـ **المعنى الأول**: أن يكون ارتكابُه للشُّبهة ـ مع اعتقاده أنها شبهة ـ ذريعة إلى ارتكابه الحرام الذي يعتقد أنَّه حرام، على طريقة التدرُّج والتساهل..

ـ **والمعنى الثاني**: أنَّ من أقدم على ما هو مشتبه عنده، لا يدري

أهو حلال أو حرام؟ فإنَّه لا يأمن أن يكون حراماً في نفس الأمر، فيصادف الحرام وهو لا يدري أنه حرام.

٥ ـ قوله ﷺ: (كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنَّ لكلِّ ملك حمى، ألا وإنَّ حمى الله محارمه):

هذا مثل ضربه النبيُّ ﷺ لمن وقع في الشبهات، وأنَّه يقرب وقوعه في الحرام المحض.

فجعل النبيُّ ﷺ مَثَل المحرمات: كالحمى الذي يحميه الملوك ويمنعون غيرهم من قربانه.

والله سبحانه حمى هذه المحرمات ومنع عباده من الاقتراب منها، وسماها «حدوده» وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

وهذا فيه بيان أنَّه حدَّ لهم ما أحلَّ لهم وما حرم عليهم، فلا يقربوا الحرام، ولا يتعدَّوا الحلال.

فمن يرعى حول الحمى أو قريباً منه، جدير بأن يدخل الحمى فيرتع فيه، فلذلك من تعدَّى الحلال، ووقع في الشُّبهات، فإنه قد قارب الحرام غاية المقاربة، ما أخلقه بأن يخالط الحرام المحض ويقع فيه.

وفي هذا إشارة إلى أنَّه ينبغي التباعد عن المحرمات، وأن يجعل الإنسان بينه وبينها حاجزاً.

قال النبيُّ ﷺ: **(لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتَّى يدع ما لا بأس به حذراً ممَّا به بأس)**[1].

وقال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين، حتَّى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥١)؛ وابن ماجه (٤٢١٥).

٦ ـ قوله ﷺ: (ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب):

هذا فيه إشارة إلى أنَّ صلاح حركات العبد بجوارحه، واجتنابه المحرمات، واتقاءه للشبهات، بحسب صلاح حركة قلبه.

فإنْ كان قلبه سليماً، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبُّه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلِّها، وتوقي الشبهات حذراً من الوقوع في المحرمات.

وإن كان القلب فاسداً، قد استولى عليه اتباع هواه، وطلب ما يحبه، ولو كرهه الله تعالى، فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كلِّ المعاصي والمشتبهات، بحسب اتباع هوى القلب.

ولهذا يقال: القلب ملك الأعضاء، وهم جنود طائعون له، لا يخالفونه في شيء، فإن كان الملك صالحاً كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسداً كانت جنوده فاسدة، ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء].

والقلب السليم هو السالم من الآفات والمكروهات كلِّها، وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة الله، وما يحبه الله، وخشية الله، وخشية ما يباعد منه.

قال الحسن لرجل: دَاوِ قلبَك، فإنَّ حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم.

يعني أنَّ مراده منهم ومطلوبه صلاح قلوبهم، ولا صلاح لها حتَّى تستقرَّ فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته والتوكُّل عليه، وهذا هو حقيقة التوحيد].

٧ ـ العلم والتطبيق:

أقول: (إنَّ الحلال بيِّن...): هذا التعبير، وهذه الصيغة ترشد إلى أن «الحلال» واضح بذاته لا يحتاج إلى جهد لاكتشافه أو التعرف عليه، وكذلك الحرام.

والفطر السليمة مؤهَّلة لمعرفة ذلك، كما أنَّها مؤهَّلة للتمييز بين الحقِّ والباطل، وهذا من نعمة الله على الإنسان، ومع ذلك فإنَّ الله سبحانه بيَّن ذلك على لسان أنبيائه ورسله.. ليؤكِّد ما قام بالفطرة.. نور على نور.

ولكن «المعرفة» وحدها ليست كافية، فلا بدَّ من قلب سليم حتى تتحوَّل المعرفة إلى عمل وسلوك، إذ قد يعرف الإنسان الحقَّ ولا يلتزم بالعمل به، وقد يعرف الحلال ولكنه لا يسعى لتحصيله.

إنَّ معرفة الحلال والحرام أمر واجب، ولكن هذه المعرفة لا تؤتي ثمارها إلا عندما يكون القلب سليماً، ملتزماً بأوامر الله، مبتعداً عن نواهيه، حذراً من الوقوع في الشبهات.

وبهذا تظهر العلاقة بين أول الحديث وآخره، وتظهر مناسبة ذكر القلب في هذا الحديث الشريف.

الحديث الخامس
الأَعْمَالُ بالخَوَاتِيمِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَهوَ الصَّادِقُ المصْدُوقُ:

(إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعينَ يَوْماً نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بأَرْبَعِ كَلماتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَعَمَلِهِ وَأَجلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالذِي لا إِلَه غَيْرُهُ: إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتى مَا يَكُونُ بِيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها، وإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتى مَا يَكُون بَيْنَهُ وَبَيْنَها إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُها). رواه البخاري ومسلم(١)

❁ ❁ ❁

وعَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

(إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجنَّةِ، فِيمَا يَبْدو للنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ

---

(١) رواه البخاري (٧٤٥٤)؛ ومسلم (٢٦٤٣).

النَّارِ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدو للنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ). رواه البخاري ومسلم(١)

❁ ❁ ❁

• **مكانة الحديث:**

يتناول هذا الحديث الشريف أمرين؛ كل منهما له شأنه وأهميته في بابه:

الأول: بيان كيفية خلق الإنسان والأطوار التي يمر بها.

الثاني: الكلام في القدر الذي هو الركن السادس من أركان الإيمان.

ومن هنا جاءت مكانته التي لفتت نظر علماء الحديث إليه.

فقد عدَّه الإمام أحمد ـ في إحدى الروايتين عنه ـ أحد ثلاثة أحاديث ترجع أصول الأحكام إليها.

وقال إسحاق بن راهويه: أربعة أحاديث هي من أصول الدين، وذكر هذا الحديث بينها.

• **شرح الحديث:**

١ ـ الشطر الأول من الحديث:

قوله ﷺ: **(إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وعمله وأجله، وشقي أو سعيد)**.

ويحسن بنا أن نذكر معاني الكلمات:

نطفة: أصل النطفة هي الماء الصافي، والمقصود بها هنا: المني.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٨)؛ ومسلم (١١٢).

علقة: هي قطعة الدم الغليظ الذي لم ييبس.

مضغة: قطعة لحم، بقدر اللقمة التي تمضغ.

مثل ذلك: أي مثل ذلك الزمن، وهو أربعون يوماً.

[والأحاديث التي وصفت عملية تكوين خلق الإنسان كثيرة لا تخرج في معناها العام عن الطريقة التي ذكرها هذا الحديث.

كما تناولت الآيات الكريمة هذا الموضوع؛ وأذكر منها:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥].

والحديث موافق للآية، وهو يدل على أنَّ الإنسان عندما يكون في بطن أمه يمر في ثلاثة أطوار، زمن كل منها أربعون يوماً، والمجموع مئة وعشرون يوماً، ثم بعد ذلك ينفخ الملك فيه الروح ويكتب الكلمات.

وقد ورد ذكر هذه الأطوار الثلاثة ـ النطفة والعلقة والمضغة ـ في مواضع متعددة من القرآن الكريم، ولكنَّا نجد في سورة المؤمنون زيادة تفصيل:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون].

فهذه سبعة أطوار، ذكرها الله تعالى في هذه الآية لخلق ابن آدم قبل نفخ الروح فيه، وكان ابن عباس ﷺ يقول: خلق ابن آدم من سبع. ثم يتلو هذه الآية، وسُئل عن العزل، فقرأ هذه الآية، ثم قال: فهل يخلق أحد حتى تجري فيه هذه الصفة؟ وفي رواية قال: فهل تموت نفس حتى تمرَّ على هذا الخلق؟.

وقد بنى الفقهاء على هذا الحديث عدة أحكام:

ـ **منها**: أنَّه رخَّص طائفة من الفقهاء للمرأة في إسقاط ما في بطنها ما لم تنفخ فيه الروح، وجعلوه كالعزل، وهو قول ضعيف، لأنَّ الجنين ولدٌ انعقد، وفي العزل لم يوجد ولدٌ بالكلية، وقد صرح أصحابنا بأنه إذا صار الولد علقة، لم يجز إسقاطه، لأنَّه ولدٌ انعقد، بخلاف النطفة فإنَّها لم تنعقد بعد.

ـ **ومنها**: أنَّ المرأة إذا أسقطت الجنين بعد تمام الأربعة أشهر، فإنه يُصلَّى عليه حيث كان قد نُفِخت فيه الروح ثم مات.

ونقل غير واحد عن أحمد: أنَّه قال: إذا بلغ أربعة أشهر وعشراً، ففي تلك العشر يُنفخ فيه الروح ويُصلى عليه.

وكذا قال ابن المسيب لما سئل عن عدة الوفاة؛ حيث جعلت أربعة أشهر وعشراً: ما بال العشر؟ قال: ينفخ فيها الروح.

٢ ـ كتابة الكلمات:

إنَّ الكتابة الواردة في الحديث، التي تكتب للجنين في بطن أمه، هي غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلائق المذكورة في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

وكما ورد في «**صحيح مسلم**»: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: (**إنَّ الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**).

٣ ـ السعادة والشقاوة:

جاء في الحديث أنَّ الكتابة تتضمن بيان سعادة الإنسان أو شقاوته، وقد ورد هذا المعنى في أحاديث كثيرة:

فقد جاء في «**الصحيحين**»: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قال: (**ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة**) فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: (**اعملوا، فكلٌّ ميسَّر لما خُلق الله، أما أهل السَّعادة فييسَّرون لعمل أهل السَّعادة، وأما أهل الشَّقاوة فييسَّرون لعمل أهل الشَّقاوة**) ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل].

ففي هذا الحديث: أنَّ السعادة والشقاوة قد سبق الكتاب بهما، وأن ذلك مقدَّر بحسب الأعمال، وأن كلّاً ميسَّرٌ لما خُلِقَ له من الأعمال التي هي سبب للسعادة أو الشقاوة].

أقول: إنَّ السؤال المطروح هنا ـ وهو ما قاله الصحابي في هذا الحديث ـ: إذا كانت نتيجة كل إنسان معروفة، هل هو في الجنة أو في النار، فلماذا العمل؟!.

إنَّ هذا السؤال طُرح على النبيِّ ﷺ أكثر من مرة، وكان جوابه واحداً لا يتغير: (**اعملوا، فكلٌّ ميسَّر لما خُلق له**).

ونحن بحاجة إلى إيضاح هذا المعنى وتقريبه إلى الأذهان، وقد كفتنا السُّنَّة المطهرة مؤنة البحث؛ ففي الحديث التالي ما يشفي الصدور:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتَّى احمرَّ وجهه، كأنما فُقِئ في وجنتيه الرُّمَّان، فقال: (**أبهذا أُمِرتُم؟! أم بهذا أُرْسلتُ إليكم؟! إنَّما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمتُ عليكم، عزمتُ عليكم ألا تنازعوا فيه**)[1].

---

(١) رواه الترمذي (٢١٣٣).

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم يتنازعون في القدر، هذا ينزع آية وهذا ينزع آية، فكأنما فُقِئَ في وجهه حبُّ الرمان، فقال: **(أبهذا أُمرتم؟! أو بهذا بُعثتم؟! أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، إنَّما ضلَّت الأمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستُم ممَّا هاهنا في شيء، انظروا الذي أمرتم به فاعملوا به، والذي نُهيتم عنه فانتهوا)**[1].

قال عبد الله بن عمرو ﷺ: ما غبطت نفسي بمجلس تخلَّفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلُّفي عنه.

ويبدو ـ والله أعلم ـ أنَّ الحديثين يخبران عن واقعة واحدة، لم تتكرر لشدة ما رأى الصحابة ﷺ من غضبه ﷺ، وحتى غبط عبد الله نفسه أنه لم يكن في ذلك المجلس.

وهذه الواقعة ذات دلالات كثيرة أذكر منها ما يتعلق بالموضوع الذي نحن بصدده:

١ ـ لم يوضِّح ﷺ لأولئك النفر خطأ من أخطأ وصواب من أصاب، وإنما أنكر طريقتهم لأنَّه لا طائل وراءها.

٢ ـ في قوله ﷺ: **(إنكم لستُم ممَّا هاهنا في شيء)** دليل على أن ما كانوا فيه ـ وهو أمر القدر ـ ليس محلّاً للنقاش، لأنَّه أمر إيماني، محلُّه القلب، وعمل القلب فيه هو التصديق بما جاء من عند الله تعالى.

٣ ـ في قوله ﷺ: **(انظروا الذي أُمرتم به فاعملوا به، والذي نُهيتم عنه فانتهوا)** بيان لميدان العمل، فالمسلم بين أمر عليه تنفيذه، ونهي عليه الامتناع عنه.

---

(١) رواه أحمد: ٢/ ٢٩٦؛ وابن ماجه (٨٥).

وإذاً فهناك عمل للقلب وعمل آخر للجوارح، ولا تعارض بينهما.

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن تيمية: «فمن أعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد ناظراً إلى القدر فقد ضلَّ، ومن طلب القيام بالأمر والنهي معرضاً عن القدر فقد ضلَّ، بل المؤمن كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فنعبده اتِّباعاً للأمر، ونستعينه إيماناً بالقدر»[١].

٤ ـ في قوله ﷺ: **(عزمتُ عليكم ألا تنازعوا فيه)** إغلاق لباب النزاع، وطلب لمحاولة الفهم بعيداً عن الجدل[٢].

سُقْت هذا البحث لبيان قوله ﷺ: **(اعملوا، فكلٌّ ميسَّر لما خُلق له)** جواباً على سؤال من قال: «أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل».

وإذن فحديث ابن مسعود رضي الله عنه يقرِّر قضية إيمانية هي من الإيمان بالغيب وهي الإيمان بالقدر، وهي قضية فكرية عقلية طريقها التسليم طالما أنَّها من أفراد الإيمان بالغيب، وهي بهذا المعنى وبهذه الحدود لا يمكن أن تلغي ـ بل ولا تتعارض مع ـ مئات الأوامر والنواهي الواردة في الكتاب والسُّنَّة؛ فالإيمان هو التسليم، والأمر والنهي إنما هما عمل وتطبيق.

٤ ـ الشطر الثاني من الحديث:

قوله ﷺ: **(فوالذي لا إلٰه غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها).**

---

(١) الفتاوى: ٨/ ٧٣.

(٢) عن كتاب: رضيت بالإسلام ديناً، ص ١٦١ ـ ١٦٤، نشرته دار القلم.

هذه الفقرة من الحديث جاءت لتؤكِّد أن ما كُتب على الإنسان من السعادة والشقاوة هو المصير المحتوم له، ولذلك قد يعمل طول حياته بعمل أهل الجنة، ثم يعمل في آخر حياته سيِّئاً بسبب ما سبق عليه من الكتاب فيكون من أهل النار.

ويؤكِّد هذا المعنى ما جاءت به الأحاديث الأخرى التي تؤكِّد أن السعادة والشقاوة بحسب خواتيم الأعمال.

وهناك إشكال كبير ينبعث في نفس القارئ عندما يقف أمام هذه الفقرة من الحديث، لما تحدثه في نفسه من الخوف الشديد، فهو لن يكون في مأمن وإن عاش طول حياته على الإسلام، وحرص أن يموت على الإسلام، فكيف السبيل وسبق الكتاب ينتظره؟!.

وهذا إشكال في محلِّه إذا اقتصرنا في فهم هذا الموضوع على هذا النصِّ وحده، ولم نستطلع الأحاديث الأخرى، فالسُّنَّة المطهَّرة يشرح بعضُها بعضَها الآخر، ويبين بعضها بعضها الآخر، وقد ورد فيها ما يحلُّ هذا الإشكال، بل لا إشكال عندما تجمع الأحاديث ذات الموضوع الواحد ويضم بعضها إلى بعض.

فقد جاء في «**الصحيحين**»: عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: (**إنَّ الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للنَّاس، وهو من أهل النار، وإنَّ الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للنَّاس، وهو من أهل الجنة**)[1].

[فقوله ﷺ: (**فيما يبدو للنَّاس**) إشارة إلى أن باطن الأمور يكون بخلاف ذلك، وأنَّ خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع

(١) رواه البخاري (٢٨٩٨)؛ ومسلم (١١٢).

عليها النَّاس، إما من جهة عمل سيِّئ كالرياء ونحوه، وإما من جهة اعتقاد باطل كالنفاق ونحوه، فتلك الخصلة توجب سوء الخاتمة، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النَّار، وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب تلك الخصلة في آخر عمره فتوجب له حسن الخاتمة.

وفي الجملة: فالخواتيم ميراث السوابق].

ومن المؤسف أن كثيراً من الوعَّاظ اقتصروا في فهم هذا الموضوع على ما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وانتشر هذا الفهم الناقص عند كثير من الناس، الأمر الذي دفع كثيراً من العلماء للتصدِّي لهذا الأمر وبيان الحقِّ ومنهم ابن القيم رحمه الله.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«الجهال بالله وأسمائه وصفاته، المعطلون لحقائقها، يُبَغِّضون الله إلى خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودُّد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون، ونحن نذكر أمثلة تحتذي عليها.

فهم يقرِّرون في نفوس الضعفاء، أنَّ الله سبحانه لا تنفع معه طاعة، وإن طال زمانُها، وبالغ العبد وأتى بها بظاهره وباطنه.

وأنَّ العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره، بل شأنه سبحانه: أن يأخذ المطيع المتقي من المحراب إلى الماخور[1]، ومن التوحيد والمسبحة إلى الشرك والمزمار، ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر.

ويروون في ذلك آثاراً صحيحة لم يفهموها، وباطلة لم يقلْها المعصوم، ويزعمون أنَّ هذا حقيقة التوحيد، ويتلون على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

---

(١) **الماخور**: هو مكان اجتماع الفساق وأهل الفساد.

ويحتجون بقول النبي ﷺ: **(إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)**.

وهم بمنزلة إنسان جعل يقول لولده: معلمك إن كتبتَ وأحسنتَ ولم تعْصِه ربما أقام لك حجة وعاقبك، وإن كسلتَ وتركتَ ما أمرك به ربما قرَّبك وأكرمك.

فيودِع بهذا القول في قلب الصبي: ما لا يثق بعده إلى وعيد المعلم على الإساءة، ولا وعده على الإحسان.

وإن كبر الصبيُّ وصلح للمعاملات قال له: هذا سلطان بلدنا يأخذ اللص من الحبس فيجعله وزيراً، ويأخذ المحسن فيخلده في الحبس.

فأفلس هذا المسكين من اعتقاد كون الأعمال نافعة أو ضارة، فلا بِفعلِ الخير يستأنس، ولا بِفعل الشر يستوحش.

وهل في التنفير عن الله تعالى وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا؟!.

ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله، لما أتوا بأكثر من هذا!.

وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر، ويردُّ على أهل البدع، وينصر الدين، ولعمر الله! العدوُّ العاقل أقل ضرراً من الصديق الجاهل.

وكُتبُ اللهِ المنزَّلةُ كلُّها، ورسلُه كلُّهم، شاهدة بضدِّ ذلك، ولا سيما القرآن.

فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا اللهُ ورسولُه ﷺ به الناسَ إليه، لصلح العالم صلاحاً لا فساد معه.

فالله سبحانه أخبر وهو الصادق الوفي: أنَّه إنما يعامل الناس بكسبهم، ويجازيهم بأعمالهم، ولا يخاف المحسن لديه ظلماً ولا هضماً، ولا يضيع عمل محسن أبداً، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة، ولا يظلمها، وأنه يجزي بالسيئة مثلها، ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها.. ويضاعفها.

ولما سأل نوح عليه السلام نجاة ابنه، أُخبر أنَّه يغرقه بسوء عمله وكفره. ولم يقل: إنِّي أغرقه بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سبب ولا ذنب.

وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين في سبيله، ولم يخبر أنَّه يضلُّهم ويبطل سعيهم، وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذين يبتغون رضوانه.

وأخبر أنه لا يضلُّ إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وأنَّه إنَّما يُضلُّ من آثر الضلال واختاره على الهدى، وأنه سبحانه لو علم في تلك المحالِّ ـ التي حكم عليها بالضلال ـ خيراً لأفهمها وهداها، ولكنَّها لا تصلح.

وأما كون (**الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب...**)؛ فإن هذا عَمِلَ عَمَلَ أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملاً صالحاً مقبولاً للجنة قد أحبَّه الله ورضيه لم يبطله عليه» انتهى كلام ابن القيم باختصار[1].

وقال الشيخ محمد الغزالي السقا:

«يستحيل شرعاً أن يسوِّي الله تعالى بين مؤمن وكافر، كما يستحيل شرعاً أن يدخل المؤمنين النار، ويدخل الكفار الجنة.

---

(١) كتاب: الفوائد، لابن القيم، الفائدة (٩١).

ويؤسفني أن حديث «سبق الكتاب» يُذْكَرُ الآن في بعض المواعظ والدروس الدينية دون الشرح الواجب، وأن ناقليه يسهمون في عقيدة «الجبر» واليأس من قيمة العمل، والاتكال على حظوظ غائبة وغيوب مبهمة»[١].

وبهذا يزول الإشكال الذي سبق الحديث عنه.

٥ ـ خواتيم الأعمال:

وفي الشطر الثاني من حديث ابن مسعود إشارة إلى أن السعادة والشقاوة بحسب خواتيم الأعمال.

وقد جاء هذا صراحة في رواية لحديث سهل بن سعد ـ السابق ذكره ـ في قوله ﷺ: **(إنما الأعمال بالخواتيم)**[٢].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله)** فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: **(يوفِّقه لعمل صالح قبل الموت)**[٣].

وفي هذه الأحاديث الشريفة إرشاد لكلِّ مسلم في أن يحرص على أن تكون خواتيم أعماله حسنة.

وهذا لا يكون إلا باستدامة العمل الصالح والحرص عليه بشكل دائم، لأنَّ الإنسان لا يدري متى يأتيه أجله، وإذا كان الأمر كذلك،

---

(١) بحث: (كلمات في القدر)، من كتاب: هموم داعية، للشيخ محمد الغزالي، نشرته دار القلم بدمشق.

(٢) رواه البخاري (٦٦٠٧).

(٣) رواه أحمد (١٢٠٣٦)؛ والترمذي (٢١٤٢)؛ وابن حبان (٣٤١).

فلا بدَّ له حتى تكون خاتمته حسنة أن يكون على عمل صالح، ولا يتوفَّر له ذلك إلا بالحرص الدائم على الأعمال الصالحة.

وهذا يقتضي الحذر من الذنوب الظاهرة والباطنة، والمداومة على محاسبة النفس لتصحيح المسار عندما يحدث الانحراف، بالتوبة النصوح.

وهذه الأحاديث وما في معناها تجعل المسلم في مقام الخوف والخشية، وهي مقامات العبودية الحقَّة، فيكون دائماً قلبه معلَّقاً بالله أن يثبته على الاستقامة، التي يدعو بها كلَّ يوم في صلاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وفي هذا المعنى كان أكثر دعائه ﷺ: **(اللهم يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك)**.

وكما أن الحديث يجعل الإنسان في حالة خوف من سوء الخاتمة، فإنه كذلك يفتح باب الرجاء واسعاً، فالمسيء والعاصي يستطيع التحوُّل إلى الطريق المستقيم لأنَّ باب التوبة مفتوح... وحديث الذي أسرفَ على نفسه وقتل مائة نفس، لما أحبَّ أن يرجع إلى الله وجد باب التوبة مفتوحاً، فهذا الحديث معروف يشجِّع كلَّ المنحرفين على أن يختموا حياتهم بعمل صالح.

اللهم اختم بالصالحات أعمالنا، واجعلنا في عبادك الصالحين.

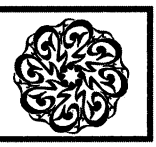

الحديث السادس
الدِّينُ النَّصِيحَةُ

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه:

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ).

قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ: (للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ).

رواه مسلم(١)

❁ ❁ ❁

• **مكانة الحديث:**

سبق ذكر قول أبي داود رحمه الله أنَّ هذا الحديث هو واحد من خمسة أحاديث تدور عليها أحكام الإسلام.

وقال الحافظ أبو نعيم: هذا حديث له شأن، ذكر محمد بن أسلم الطوسي: أنَّه أحد أرباع الدين.

وقال الإمام النووي: هذا الحديث عظيم الشأن، وعليه مدار الإسلام(٢).

---

(١) رواه مسلم (٥٥).

(٢) شرح مسلم: ٢/ ٣٧.

● **شرح الحديث:**

١ ـ الدين النصيحة:

[قال أبو عمرو بن الصَّلاح: النصيحة: كلمة جامعة، تتضمَّن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً.

وقال الخطابيُّ: النصيحة: كلمة يعبَّر بها عن جملة؛ هي: إرادة الخير للمنصوح له.

وهذه الجملة من الحديث: **(الدِّين النصيحة)** هي من جوامع الكلم التي أوتيها النبيُّ ﷺ، وهي تدلُّ على أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان المذكورة في حديث جبريل عليه السلام، حيث سمَّى ذلك كلَّه ديناً؛ فإنَّ النُّصح لله يقتضي القيام بأداء واجباته على أكمل وجوهها، وهو مقام الإحسان، فلا يكمل النصح من دون ذلك.

وقد أوضح الرسول ﷺ أنَّ النصيحة بحسب الجهة الموجهة إليها خمسة أنواع:

الأول: النصيحة لله تعالى:

قال أبو عمرو بن الصلاح: النصيحة لله تعالى: هي توحيده، ووصفه بصفات الكمال والجلال، وتنزيهه عمَّا يضادها ويخالفها، وتجنبُ معاصيه، والقيام بطاعاته ومحابِّهِ بوصف الإخلاص، والحبُّ فيه والبغض فيه، وجهادُ من كفر به تعالى وما ضاهى ذلك، والدعاء إلى ذلك والحثُّ عليه.

وفصَّل بعض العلماء القول ـ فيما نقله عنه محمد بن نصر المروزيُّ ـ فقال:

النصيحة على وجهين: أحدهما: فرض، والآخر: نافلة.

فالنصيحة المفترضة لله: هي شِدَّة العناية من الناصح باتباع محبة الله في أداء ما افترضَ ومجانبةِ ما حَرَّم.

وأمَّا النصيحة التي هي نافلة: فهي إيثار محبته على محبة نفسه، وذلك أن يعرض أمران: أحدهما لنفسه، والآخر لربِّه، فيبدأ بما كان لربِّه، ويؤخر ما كان لنفسه.

ومن الفرض: مجانبة نهيه ﷻ، وإقامة فرضه بجميع جوارحه ما كان مطيقاً له، فإن عجز عن القيام بفرضه لآفة حلَّت به من مرض، أو حبس أو غير ذلك، عزم على أداء ما افترض عليه متى زالت عنه العلَّة المانعة له.

وقد تُرفع الأعمال كلُّها عن العبد في بعض الحالات، ولا يرفع عنه النُّصح لله، فلو كان من المرض بحال لا يمكنه عملٌ بشيء من جوارحه، بلسان ولا غيره، غير أنَّ عقله ثابت، لم يسقط عنه النصح لله بقلبه، وهو أن يندم على ذنوبه، وينوي إن صحَّ أن يقوم بما افترض الله عليه، ويجتنب ما نهاه عنه، وإلا كان غير ناصح لله بقلبه.

الثاني: النصيحة لكتاب الله تعالى:

قال أبو عمرو: والنصيحة لكتابه: الإيمان به وتعظيمه وتنزيهه، وتلاوته حقَّ تلاوته، والوقوف مع أوامره ونواهيه، وتفهُّم علومه وأمثاله، وتدبُّر آياته، والدعوة إليه، وذبُّ تحريف الغالين وطعن الملحدين عنه.

وقال محمد بن نصر فيما نقله: وأما النصيحة لكتاب الله: فشدَّة حبِّه وتعظيم قدره، إذ هو كلام الخالق، وشدة الرغبة في فهمه وشدة العناية لتدبُّره، والوقوف عند تلاوته لطلب معاني ما أحبَّ مولاه أن يفهمه عنه، ويقوم به له بعد ما يفهمه.

الثالث: النصيحة للرسول ﷺ:

قال أبو عمرو: والنصيحة لرسوله: الإيمان به، وبما جاء به، وتوقيره وتبجيله، والتمسُّك بطاعته، وإحياء سنته ونشر علومها، ومعاداة من عاداها، وموالاة من والاها، والتخلُّق بأخلاقه، والتأدُّب بآدابه، ومحبته ومحبة آله وصحابته.

وقال محمد بن نصر فيما نقله: وأما النصيحة للرسول ﷺ في حياته، فهي بذل المجهود في طاعته ونصرته ومعاونته، وبذل المال إذا دعا إلى بذله، والمسارعة إلى محبته.

وأما بعد وفاته: فالعناية بطلب سُنَّته، والبحث عن أخلاقه وآدابه، للتخلُّق بها، وتعظيم أمره ولزوم القيام به، والإعراض عمَّن تديَّن بخلاف سُنَّته، والغضب على من ضيَّعها لأثرة دنيا، وحبُّ من كان منه بسبيل من قرابة، أو صهر، أو هجرة، أو نصرة، أو صحبة ساعة من ليل أو نهار على الإسلام، والتشبُّه به في زيِّه ولباسه.

قال الحافظ ابن رجب: ومن أنواع النصح لله تعالى وكتابه ورسوله ـ وهو ممَّا يختصُّ به العلماء ـ: ردُّ الأهواء المضِلَّة بالكتاب والسُّنَّة، وبيان دلالتهما على ما يخالف الأهواء كلَّها، وكذلك ردُّ الأقوال الضعيفة من زلَّات العلماء، وبيان دلالة الكتاب والسُّنَّة على ردِّها، ومن ذلك بيان ما صحَّ من حديث النبيِّ ﷺ، وما لم يصحَّ ببيان حال رواته، وبيان غلط من غلط من ثقاتهم الذين تُقبل روايتهم.

الرابع: النصيحة لأئمَّة المسلمين:

قال أبو عمرو: والنصيحة لأئمَّة المسلمين: معاونتهم على الحقِّ، وطاعتهم فيه، وتذكيرهم به، وتنبيههم في رفق ولطف، ومجانبة الخروج عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق.

وقال محمد بن نصر فيما نقله: النصيحة لأئمة المسلمين: هي حبُّ صلاحهم ورشدهم وعدلهم، وحبُّ اجتماع الأمة عليهم، وكراهة افتراق الأمة عليهم، والتديُّن بطاعتهم في طاعة الله ﷻ، والبغض لمن رأى الخروج عليهم.

وممَّا يحسن بيانه: أن من أحبَّ نصيحة إمامه فينبغي أن تكون بينه وبينه سرّاً وليس على رؤوس الأشهاد، فذلك أدعى لقبولها.

وقد سُئل ابن عباس رضي الله عنهما، عن أمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر، فقال: إن كنت فاعلاً ولا بدَّ، ففيما بينك وبينه.

الخامس: النصيحة لعامَّة المسلمين:

قال أبو عمرو: والنصيحة لعامَّة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم، وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، وستر عوراتهم، وسدُّ خلاتهم، ونصرهم على أعدائهم، ومجانبة الغشِّ والحسد لهم، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه.

وقال محمد بن نصر فيما نقله: أن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه، ويشفق عليهم، ويرحم صغيرهم ويوقِّر كبيرهم، ويحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم.. ويحبُّ صلاحَهم وإلفتهم ودوام النِّعم عليهم..

وقال الحافظ ابن رجب: ومن أنواع نصحهم: دفع الأذى والمكروه عنهم، وإيثار فقيرهم، وتعليم جاهلهم، وردُّ من زاغ منهم عن الحقِّ في قول أو عمل بالتلطُّف في ردِّهم إلى الحقِّ، والرفق بهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، محبة لإزالة فسادهم ولو بحصول ضرر له في دنياه].

أقول: وقد ورد التأكيد على النصح للمسلمين في أكثر من حديث،

منها ما جاء في «**الصحيحين**» عن جرير بن عبد الله ﷺ قال: «**بايعتُ رسول الله ﷺ على إقامِ الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنُّصح لكل مسلم**»[١].

ومن المستحسن أن يكون النصح سرّاً عندما يكون أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، قال الفضيل: المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعيِّر.

٢ ـ الخلاصة:

بعد أن رأينا أقوال العلماء في شرح هذا الحديث الجامع، نستطيع أن نقول: إنَّ النصيحة المطلوبة من كلِّ مسلم هي نوعان:

ـ **نصيحة الإنسان نفسه**: فقد رأينا أن النصيحة لله ولكتابه ولرسوله، إنَّما هي التزام المرء بما طلبه منه الله تعالى ورسوله ﷺ، وما جاء في القرآن الكريم من أوامر، والانتهاء عمَّا نهى الله عنه ورسوله، وما جاء من نواهٍ في القرآن الكريم. وهذا كلُّه يصبُّ في مصلحة الإنسان نفسه، وهو مُثابٌ على ذلك ومأجور.

ـ **نصيحة عامة المسلمين**: ومنهم الأئمة ـ إن وجدوا وقدر الإنسان على الوصول إليهم ـ والنصيحة هنا بمعناها العام: حبُّ الخير لهم، والسَّعي في إيصاله إليهم، وهذا يعني أنَّ الإنسان المسلم ينبغي أن يكون محبّاً للخير، بعيدة نفسه عن الشرِّ، فيحبُّ للمسلمين ما يحبُّ لنفسه كما ورد ذلك في الحديث الصحيح من قوله ﷺ: (**لا يؤمن أحدُكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**).

ورضي الله عن ابن عباس؛ فقد قال كلمة تمثِّل ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من الخيرية الخالصة، ومن الاشتغال بهمِّ المسلمين، قال:

---

(١) رواه البخاري (٥٧)؛ ومسلم (٥٦).

«إنِّي لآتي على الآية من كتاب الله تعالى، فلوددتُ أنَّ جميع الناس يعلمون منها ما أعلم.

وإنِّي لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح به، ولعلِّي لا أقاضي إليه أبداً.

وإنِّي لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين، فأفرح به، وما لي به من سائمة»[١].

وهذا من غاية النصيحة أن يفرح المسلم لما أصاب إخوانه من خير وإن لم يكن له من حظٍّ في ذلك الخير.

٣ ـ حكم الغشِّ:

قد رأينا مكانة النصيحة من الدِّين، وكيف أن الإمام النوويَّ جعل مدار الإسلام عليها وفقاً لقوله ﷺ: **(الدِّين النصيحة)**، وقد يكون من المستحسن أن نتعرَّف في الوجه المقابل وفي الجانب السلبي على حكم «الغش».

والغشُّ: ضد النُّصح، من الغَشَش وهو المشرب الكدر، كما في «النهاية».

وقد ورد النهي عن الغش في أحاديث أقتصر على ذكر واحد منها:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(من حمل علينا السِّلاح فليس منَّا، ومن غشَّنا فليس منَّا)**[٢].

ولن أنساق خلف أقوال بعض الشراح لهذا الحديث، التي قد

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ٣٢٢.

(٢) رواه مسلم (١٠١).

تُخرِج الحديث عن مضمونه، ولكني أترك للقارئ أن يتفهَّم معنى الحديث في ضوء ما سبق من حديث النصيحة.

فهما معنيان متقابلان «النصيحة» و«الغش»؛ فإذا كان **(الدين النصيحة)** فإن البيان الصحيح الوحيد لمكان الغشِّ هو قوله ﷺ: **(فليس منَّا)**.

وممَّا يزيد حكم الغشِّ وضوحاً هو وضعه مع **حمل السلاح على المسلمين** في حديث واحد، وإعطاؤهما حكماً واحداً، ولنقف أمام نصِّ الحديث مرة أخرى: **(من حمل علينا السِّلاح فليس منَّا، ومن غشَّنا فليس منَّا)**.

إنَّ قرنه ﷺ بين هذين الأمرين، وكون حكمهما واحداً أمر مقصود منه ﷺ؛ لأنَّ هذين الأمرين يتعارضان مع القيمة الأولى التي تحكم جماعة المسلمين؛ وهي «الأخوة»؛ فكيف يحمل الأخُ سلاحه على أخيه؟! وكيف يغشُّ الأخ أخاه؟! إنَّه أمر غير متصوَّر وفقاً لقواعد هذا الدين الحنيف.

هذا ما يتعلَّق بغش فرد من المسلمين لآخر.

أما عندما يكون الغشُّ من الحاكم لرعيته، فذلك أمر آخر نترك الحكم فيه للصَّادق المصدوق ﷺ.

عن الحسن: أنَّ عبيد الله بن زياد، عاد معقل بن يسار في مرضه الذي مات فيه، فقال له معقل: إنِّي محدِّثُك حديثاً سمعتُه من رسول الله ﷺ؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **(ما من والٍ يلي رعية من المسلمين، فيموت وهو غاشٌّ لهم، إلا حرم الله عليه الجنة)**[1].

---

(١) رواه البخاري (٧١٥١).

وفي رواية: (**ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يُحِطْها بنُصحه، إلا لم يجد رائحة الجنة**)[١].

إنَّ الرواية الثانية توضِّح الرواية الأولى ـ وكلاهما في الصحيح ـ أنَّ من لم يُحِطْ رعيَّتَه بنصحه فهو غاشٌّ لهم، والجزاء واحد؛ فتحريم الجنة عليه معناه بُعده عنها حتَّى لا يصل إليه ريحها.. وريحها يمتدُّ المسافات الشاسعة التي ليست في مقاييس الدنيا.

هذا حكم الغاشِّ عندما يكون فرداً من المسلمين.

وهذا حكم الغاشِّ عندما يكون حاكماً من حكَّام المسلمين.

نسأل الله تعالى السلامة، ونسأله أن يجعلنا ممَّن نصحوا لله ولرسوله وللمؤمنين.

٤ ـ نصيحة النَّاس كلِّهم:

رأينا في الفقرة السابقة كيف أنَّ الإسلام منع الغشَّ تطبيقاً لقاعدة النصيحة؛ فذلك بعض مقتضياتها.

ووقفنا أمام قوله ﷺ: (**ومن غشَّنا فليس منَّا**)، فهل المقصود الامتناع عن غشِّ المسلمين وحدهم، ولا مانع من ذلك مع غيرهم؟.

وللجواب على ذلك نقف أمام الحديث النبوي التالي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ على صبرة طعام، فأدخل يدَه فيها، فنالتْ أصابعُه بللاً، فقال: (**ما هذا يا صاحب الطعام؟**) قال: أصابتْه السَّماء يا رسول الله؟ قال: (**أفلا جعلتَه فوق الطعام كي يراه الناس؟! من غشَّ فليس منِّي**)[٢].

---

(١) رواه البخاري (٧١٥٠)؛ ومسلم (١٤٢).

(٢) رواه مسلم (١٠٢).

وهذا الحديث في الصحيح رواه مسلم بهذا اللفظ، والإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه.

ويلاحظ في الحديث قوله ﷺ: **(كي يراه الناس)**، وقوله: **(من غشَّ)**.

فقوله: **(من غشَّ)** أي: من قام بعملية الغشِّ، بغضِّ النظر عن الطرف الثاني الذي وقع عليه الغشُّ، يؤكِّد هذا المعنى قوله: **(كي يراه الناس)**.

فالذي قام في متجره يبيع فيه ما عنده، من المحتمل أن يشتري من عنده المسلم وغير المسلم، والمطلوب منه أن لا يغشَّ من يشتري بغضِّ النظر عن دينه وجنسه.

وإذن، فهذا الخطاب موجَّه إلى كل مسلم ألَّا يصدر عنه الغش، لأنَّ هذا العمل يتنافى بطبيعته مع ما استقرَّ عنده من الإيمان والصفاء وحبِّ الخير لكلِّ النَّاس.

وهذه هي مبادئ الإسلام جميعها تؤكِّد هذا المعنى الذي يجعل الفرد المسلم حريصاً على حبِّ الخير للنَّاس جميعاً.

وقد يُطرح السؤال التالي: لماذا كان الحديث الأول بلفظ: **(من غشَّنا فليس منَّا)**؟.

أقول: هذا الخطاب منه ﷺ كان لجماعة المسلمين، فاقتضى أن يكون بهذه الصيغة، أمَّا عندما كان لفرد قد صدر عنه الغشُّ، وعمله مكان لإمكانية الغش، كان الخطاب عامّاً يشمل النَّاس جميعاً بشكل لا لبس فيه.

الحديث السابع
لا يَقْبَلُ اللَّه إلَّا طَيِّباً

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

(إِنَّ الله تعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً.

وإِنَّ الله أَمَرَ المؤمِنينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المرسَلينَ، فَقَالَ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢].

ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلَ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلى السَّماءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ). رواه مسلم[(١)]

❁ ❁ ❁

- **مكانة الحديث:**

قال أبو داود: نظرتُ في المسند فإذا هو أربعة آلاف حديث، ثم نظرتُ فإذا مدار الأربعة الآلاف على أربعة أحاديث. . وذكر منها هذا الحديث.

وقال النوويُّ: هذا الحديث من الأحاديث التي عليها قواعد الإسلام ومباني الأحكام[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥)؛ والترمذي (٢٩٨٩) وغيرهما.

(٢) شرح متن الأربعين النووية، للنووي.

أقول: وتأتي مكانة هذا الحديث من كونه يتحدَّث على أمرين يلازمان الإنسان طوال حياته، أمر طعامه، وأمر دعائه، وأنَّه قدم لذلك بقاعدة تحدد صفة ما يقبله الله تعالى من عمل الإنسان.

- **شرح الحديث:**

١ ـ قوله ﷺ: (إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبل إلا طيِّباً):

[المعنى: أنَّه تعالى مقدَّس منزَّه عن النقائص والعيوب كلِّها.

وهذه الفقرة من الحديث تقرِّر أنَّ الله تعالى لا يقبل من عمل الإنسان إلا ما كان طيِّباً خالصاً له.

فهي على العموم، والمعنى: أنَّه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيباً طاهراً من المفسدات كلِّها، كالرياء والعجب، ولا يقبل من الأموال إلا ما كان طيِّباً حلالاً.

فإنَّ «الطيب» توصف به: الأعمال والأقوال والاعتقادات، فكلُّ هذه تنقسم إلى طيِّب وخبيث.

وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقد قسم الله تعالى الكلام إلى طيب وخبيث؛ فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

ووصف الله تعالى المؤمنين بالطيب بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢].

وإن الملائكة تقول عند الموت: **(اخرجي أيتها النفس الطيبة)**[١] كانت في الجسد الطيب، وإنَّ الملائكة تسلِّم عليهم عند دخول الجنة، ويقولون: **(طبتم)**.

وقد ورد في الحديث: أنَّ المؤمن إذا زار أخاً له في الله، تقول له الملائكة: **(طبت وطاب ممشاك، وتبوَّأت من الجنة منزلاً)**[٢].

فالمؤمن كلُّه طيب، قلبه ولسانه وجسده؛ بما سكن في قلبه من الإيمان، وظهر على لسانه من الذكر، وعلى جوارحه من الأعمال الصالحة التي هي ثمرة الإيمان، وداخلة في اسمه، فهذه الطيبات كلُّها يقبلها الله ﷻ].

أقول: وهذه الفقرة من الحديث تضع قاعدة عامَّة ومبدأ عامّاً يسهل حفظه والرجوع إليه والتعامل معه؛ فكلُّ طيب هو أهل لأن يكون متقبلاً عند الله تعالى.

٢ ـ قوله ﷺ: (وإنَّ الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين):

[قوله: **(إنَّ الله لا يقبل إلا طيِّباً)** ومن أعظم ما يحصل به طيب الأعمال للمؤمن طيب مطعمه، وأن يكون من حلال، فبذلك يزكو عملُه.

وفي هذا الحديث بيان بأنَّه لا يقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأنَّ أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله، فإنَّه قال بعد تقريره **(إنَّ الله لا يقبل إلا طيِّباً)**: **(إنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾)**.

---

(١) رواه أحمد (١٨٥٣٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٨)؛ وابن ماجه.

والمراد بهذا أنَّ الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالاً؛ فالعمل صالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولاً؟!.

وما ذكره بعد ذلك من الدعاء، وأنه كيف يتقبَّل مع الحرام، فهو مثال لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام، وهو ما جاء ذكره في نصِّ الحديث بقوله: (**فأنَّى يستجاب لذلك؟!**) أي: كيف يُستجاب لمن أكل الحرام ولبس الحرام، فأصبح مع الحرام، وأمسى مع الحرام!.

٣ ـ **قوله ﷺ: (ثم ذكر الرَّجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك)**:

هذا الكلام أشار فيه ﷺ إلى آداب الدعاء، وإلى الأسباب التي تقتضي إجابته، وإلى ما يمنع من إجابته، فذكر من الأسباب التي تقتضي إجابة الدعاء أربعة:

أحدها: إطالة السَّفر: والسَّفر بمجرده يقتضي إجابة الدعاء، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: (**ثلاث دعوات مستجابات لا شكَّ فيهنَّ: دعوةُ المظلوم، ودعوةُ المسافر، ودعوة الوالد لولده**) خرجه أبو داود وابن ماجه والترمذي[1].

وروي مثله عن ابن مسعود.

ومتى طال السفر، كان أقرب إلى إجابة الدعاء، لأنَّه مظنة حصول انكسار النفس بطول الغربة عن الأوطان، وتحمُّل المشاق، والانكسار من أعظم أسباب إجابة الدعاء.

---

(١) رواه أبو داود (١٥٣٦)؛ والترمذي (١٩٠٥)؛ وابن ماجه (٣٨٦٢).

الثاني: حصول التبذُّل في اللِّباس والهيئة بالشعث والاغبرار: وهو أيضاً من المقتضيات لإجابة الدعاء، كما في الحديث المشهور عن النبيِّ ﷺ: **(رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه)**[١].

ولما خرج النبيُّ ﷺ للاستسقاء، خرج متبذِّلاً متواضعاً متضرعاً[٢].

الثالث: مدُّ يديه إلى السماء: وهو من آداب الدعاء التي يُرجى بسببها إجابته، وفي حديث سلمان رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: **(إنَّ الله تعالى حييٌّ كريم، يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردَّهما صفراً خائبتين)** أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي[٣].

وروي نحوه من حديث أنس، وجابر، وغيرهما.

وكان النبيُّ ﷺ يرفع يديه في الاستسقاء، حتى يُرى بياض إبطيه، ورفع يديه يوم بدر يستنصر على المشركين حتى سقط رداؤه عن منكبيه.

الرابع: الإلحاح على الله بتكرير ذكر ربوبيته: وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء.

والخامس: هو ما ورد ذكره في هذا الحديث، **وهو أكل الحلال:** فإنَّ أكل الحرام ممَّا يمنع إجابة الدعاء.

٤ ـ قوله ﷺ: (فأنَّى يُستجاب لذلك):

معناه: كيف يُستجاب له؟! فهو استفهام وقع على وجه التعجُّب والاستبعاد، وليس صريحاً في استحالة الاستجابة ومنعها بالكلية.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٢، ٢٨٤٦).

(٢) رواه الترمذي (٥٥٩)؛ وأبو داود (١١٦٥).

(٣) رواه أبو داود (١٤٨٨) وغيره.

فيؤخذ من هذا: أنَّ التوسع في الحرام، والتغذِّي به من جملة موانع الإجابة.

وقد يكون ارتكاب المحرمات الفعلية مانعاً من الإجابة أيضاً، وكذلك ترك الواجبات].

٥ ـ تعقيب:

إنَّ الطعام بالنسبة للإنسان عمل يومي، لا تستمرُّ الحياة من دونه، ومن هنا تأتي أهمية العناية به، ولهذا سمح هذا الدِّين الحنيف بأكل الميتة عند الضرورة.

وقد تناول القرآن الكريم هذا الموضوع، كما رأينا في الآيتين اللَّتين سبق ذكرهما في الحديث الشريف، وغيرهما في القرآن كثير، ممَّا ورد في بيان المحرَّمات من الطعام وكلِّ ما يمتُّ إلى الموضوع بصلة.

ولهذا كانت عناية الصحابة والسَّلَف الصالح بهذا الموضوع كبيرة، من حيث تحرِّي الحلال والوقوف عنده، والأخبار في ذلك كثيرة كثيرة.

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يدخل يده في فمه ليستقيء لقمةً تبيَّن له بعدما دخلتْ جوفه أنَّها ليست من الطيبات.

فقد أخرج الإمام البخاريُّ: عن عائشة رضي الله عنها: أنَّها قالت: كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنتُ تكهنْتُ لإنسان في الجاهلية، وما أحسنُ الكهانة، إلا أنِّي خدعتُه، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلتَ منه. فأدخل أبو بكر يده، فقاء كلَّ شيء في بطنه[1].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٤٢).

ولعلَّه من المستحسن أن أذكر بعض ما جاء عن **الإمام أحمد بن حنبل** في هذا الموضوع:

١ ـ قال الإمام أحمد: إذا جمع الطعام أربعاً فقد كمل: إذا ذَكَرَ الله في أوله، وحمدَه في آخره، وكثرتِ الأيدي عليه، وكان من حلٍّ[١].

٢ ـ قال أبو حفص الطرسوسيُّ: ذهبتُ إلى أبي عبد الله ـ أحمد بن حنبل ـ فقلتُ: رحمك الله يا أبا عبد الله، بمَ تلين القلوب؟ فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه فقال: يا بني! بأكْلِ الحلال.

فمررتُ على بشر بن الحارث، فقلت له: يا أبا نصر، بمَ تلين القلوب؟ قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] قلت: فإنِّي جئتُ من عند أبي عبد الله، فقال: هيه إيش قال لك أبو عبد الله؟ قلتُ: بأكل الحلال، فقال: جاء بالأصل.

فمررتُ على عبد الوهاب بن أبي الحسن، فقلت: يا أبا الحسن، بمَ تلين القلوب؟ قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، قلتُ: فإني جئتُ من عند أبي عبد الله. فاحمرَّتْ وجنتاه من الفرح، وقال لي: إيش قال أبو عبد الله؟ فقلت: قال: بأكل الحلال. فقال: جاءك بالجوهر، جاءك بالجوهر، الأصل كما قال[٢].

٣ ـ سمع أحمد بن حنبل يحيى بن معين ـ وكانت بينهما صحبة طويلة ـ يقول: إنِّي لا أسأل أحداً شيئاً، ولو أعطاني الشيطان شيئاً لأكلتُه.

فهجره أحمد، حتَّى اعتذر، وقال: كنتُ أمزح.

---

(١) الشمائل الشريفة، للسيوطي: ١/ ٣١٦.

(٢) تهذيب حلية الأولياء: ٣/ ١٤٤، نشره المكتب الإسلامي.

فقال أحمد: تمزح بالدِّين؟! أما علمتَ أنَّ الأكل من الدِّين؟ قدمه على العمل الصالح فقال: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١][1].

تلك هي مكانة الأكل، كما فهمها السَّلف، وتلك هي قضية الوقوف عند الحلال، ولو ذهبتُ أنقل ما جاء في الموضوع لطال بنا المقام.

(١) إحياء علوم الدين: ٢/ ١٦٢، طبعة دار الخير.

الحديث الثامن
ما نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فاجْتَنِبُوهُ

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقولُ:

(مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّما أَهْلَكَ الذِينَ مِنْ قَبلِكُم، كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، واخْتِلافُهِمْ عَلى أَنْبِيائِهِمْ). رواه البخاريُّ ومسلم[1]

❁ ❁ ❁

- **مكانة الحديث:**

قال أبو داود ـ كما سبق ذكره ـ: الفقه يدور على خمسة أحاديث، وذكر هذا الحديث منها.

وقال النووي: «هذا من قواعد الإسلام المهمة، ومن جوامع الكلم»[2].

إنَّ هذا الحديث يضع قاعدة كلية لتطبيق الشريعة، يسهل على كلِّ مسلم أن يتعامل معها، فالمسلم بين أمر ينفِّذ منه ما استطاع، وبين نهي يبتعد عنه.

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)؛ ومسلم (١٣٣٧).

(٢) شرح النووي لمسلم: ٩/١٠٢.

• **روايات الحديث:**

[هذا النصُّ الذي سبق، هو ما اختاره الإمام النووي في «الأربعين» ولعله قصد إلى النصِّ المختصر.

والنصُّ المتفق عليه بين الشيخين هو:

(دعوني ما تركتُكم، إنَّما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتُكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتُكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم).

وزاد مسلم في أول هذه الرواية:

(أيها النَّاس، قد فرض الله عليكم الحج فحجُّوا) فقال رجل: أكلَّ عام، يا رسول الله؟ فسكت، حتَّى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: **(لو قلت: نعم، لوجبتْ، ولما استطعتُم)** ثم قال: **(ذروني ما تركتكم..)** الحديث[1].

• **الأسئلة زمن النبيِّ ﷺ:**

دلَّ الحديث على نهي المسلمين عن السؤال عن كثير من الحلال والحرام، ممَّا يُخشى أن يكون السؤال سبباً لنزول التشديد فيه؛ كالسؤال عن الحج: هل يجب كلَّ عام أم لا؟.

وفي الصحيح: عن سعد رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قال: **(إنَّ أعظم المسلمين في المسلمين جُرماً، من سأل عن شيء لم يحرَّمْ، فحُرِّم من أجل مسألته)**[2].

ولم يكن النبيُّ ﷺ يرخِّص في المسائل إلا للأعراب ونحوهم من

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)؛ ومسلم (١٣٣٧) (١٣٣٧م).

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٩)؛ ومسلم (٢٣٥٨).

الوفود القادمين عليه، يتألَّفهم بذلك، فأما المهاجرون والأنصار المقيمون في المدينة، فنهوا عن ذلك.

فعن أنس رضي الله عنه، قال: نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع[1].

وهذا الحديث يدلُّ على كراهة المسائل وذمِّها].

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أنَّ ذلك كان مختصّاً بزمن النبيِّ ﷺ، لما يُخشى حينئذ من تحريم ما لم يحرم، أو إيجاب ما يشق القيام به، بدلالة قوله ﷺ: (ذروني ما تركتكم)، وقوله: (لو قلتُ: نعم؛ لوجبت) وهذا قد أُمِنَ بعد وفاته ﷺ.

• **شرح الحديث:**

١ ـ قوله ﷺ: (ما نهيتُكم عنه فاجْتنبوه، وما أمرتُكم به فأْتوا منه ما استطعتُم):

[أشار ﷺ في هذا الحديث إلى أنَّ في الاشتغال بامتثال أمره، واجتناب نهيه شغلاً عن المسائل، فالَّذي يتعيَّن على المسلم الاعتناء به والاهتمام أن يبحث عمَّا جاء عن الله ورسوله ﷺ، ثم يجتهد في فهم ذلك، والوقوف على معانيه، ثم يشتغل بالتصديق بذلك إن كان من الأمور العلمية.

وإن كان من الأمور العملية، بَذَلَ وسعه في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر، واجتناب ما يُنهى عنه، وتكون همَّتُه بالكلية مصروفة إلى ذلك، لا إلى غيره.

---

(١) رواه مسلم (١٢).

وهكذا كان حال أصحاب النبيِّ ﷺ والتابعين لهم بإحسان في طلب العلم النافع من الكتاب والسُّنَّة.

أمَّا إن كانت همَّةُ السامع مصروفةً عند سماع الأمر والنهي إلى فرض أمور قد تقع، وقد لا تقع، فإنَّ هذا ممَّا يدخل في النهي.

وقد سأل رجلٌ ابنَ عمر رضي الله عنهما عن استلام الحجر، فقال له: رأيتُ النبيَّ ﷺ يستلمه، فقال له الرجل: أرأيتَ إن غُلبت عليه؟ أرأيتَ إن زُوحمتُ؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: اجعل «أرأيت» باليمن، رأيتُ النبيَّ ﷺ يستلمه ويقبِّله[1].

ومراد ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّه لا يكن لك همٌّ إلا في الاقتداء بالنبيِّ ﷺ، ولا حاجة إلى فرض العجز عن ذلك قبل وقوعه، فإنَّ التفقُّه في الدِّين، والسؤال عن العلم إنَّما يُحمد إذا كان للعمل، لا للمراء والجدال].

أقول: وأيضاً فإنَّه لا حاجة لهذا السؤال من هذا الرجل؛ لأنَّ الحديث الذي بين أيدينا يقول له: (**فأْتوا منه ما استطعتُم**). اهـ.

[ولهذا المعنى كان كثير من الصحابة والتابعين يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها، ولا يحبون ذلك.

قال عمرو بن مرة: خرج عمر على النَّاس، فقال: أُحرِّجُ عليكم أن تسألونا عن ما لم يكن، فإنَّ لنا فيما كان شغلاً.

وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه: إذا سئل عن الشيء يقول: كان هذا؟ فإن قالوا: لا، قال: دعوه حتى يكون.

---

(١) رواه البخاري (١٦١٠)؛ والترمذي (٨٦١).

وقال الشعبيُّ: سئل عمار عن مسألة، فقال: كان هذا بعدُ؟ قالوا: لا، قال: فدعونا حتَّى يكون، فإذا كان تجشَّمْناه لكم.

وفي الجملة: فمن امتثل ما أمر به النبيُّ ﷺ في هذا الحديث، وانتهى عمَّا نهى عنه، وكان مشتغلاً بذلك عن غيره، حصل له النجاة في الدنيا والآخرة.

ومن خالف ذلك، واشتغل بخواطره وما يستحسنه، وقع فيما حذر منه النبيُّ ﷺ من حال أهل الكتاب الذي هلكوا بكثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم، وعدم انقيادهم وطاعتهم لرسلهم.

٢ ـ النَّهي والأمر في هذا الحديث:

قال بعض العلماء في قوله ﷺ: **(إذا نهيتُكم عن شيء فاجْتنبوه، وإذا أمرتُكم بأمر فأْتوا منه ما استطعتُم)**: هذا يؤخذ منه أنَّ النهي أشدُّ من الأمر، لأنَّ النهي لم يرخص في ارتكاب شيء منه، والأمر قُيِّد بحسب الاستطاعة، وروي هذا عن الإمام أحمد.

ويشبه هذا قول بعضهم: أعمال البر يعملها البرُّ والفاجر، وأما المعاصي، فلا يتركها إلا صِدِّيق.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: **(اتَّقِ المحارم، تكن أعبدَ الناس)**[1].

والظاهر: أنَّ ما ورد من تفضيل ترك المحرمات على فعل الطاعات، إنَّما أريد به على نوافل الطاعات، وإلا فجنس الأعمال الواجبات أفضل من جنس ترك المحرمات، لأنَّ الأعمال مقصودة لذاتها، والمحارم المطلوب عدمها، ولذلك لا تحتاج إلى نية، بخلاف الأعمال.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٥).

وقال ميمون بن مهران: ذِكْر الله باللسان حسن، وأفضل منه أن يذكر العبدُ اللهَ عند المعصية فيمسك عنها.

وحاصل كلامهم يدلُّ على أنَّ اجتناب المحرمات ـ وإن قلَّتْ ـ أفضل من الإكثار من نوافل الطاعات، فإنَّ ذاك فرض، وهذا نفل.

وقالت طائفة من المتأخِّرين:

إنما قال ﷺ: **(إذا نهيتُكم عن شيء فاجْتنبوه، وإذا أمرتُكم بأمر، فأْتوا منه ما استطعتُم)** لأنَّ امتثال الأمر لا يحصل إلا بعمل، والعمل يتوقف وجوده على شروط وأسباب، وبعضها قد لا يُستطاع، فلذلك قيَّده بالاستطاعة، كما قيد الله الأمر بالتقوى بالاستطاعة، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال في الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وأما النهي؛ فالمطلوب عدمه، وذلك هو الأصل، والمقصود: استمرار العدم الأصلي، وذلك ممكن، وليس فيه ما لا يُستطاع.

والتحقيق في هذا: أنَّ الله لا يكلِّف العباد من الأعمال ما لا طاقة لهم به، وقد أسقط عنهم كثيراً من الأعمال بمجرد المشقة رخصةً عليهم، ورحمة لهم.

وأما المناهي: فلم يَعْذِرْ أحداً بارتكابها بقوة الداعي والشهوات، بل كلَّفهم تركها على كلِّ حال.

وأما ما أباح أن يُتناول من المطاعم المحرمة عند الضرورة بما تبقى معه الحياة، فإنَّما أحلَّه لا لأجل التلذُّذ والشهوة.

ومن هنا نعلم صحة ما قاله الإمام أحمد: إنَّ النهي أشد من الأمر،

وفي حديث ثوبان، عن النبيِّ ﷺ قال: **(استقيموا ولن تحصوا)**[1]؛ يعني: لن تقدروا على الاستقامة كلِّها.

٣ ـ قوله ﷺ: (فأْتوا منه ما استطعتُم):

هذا دليل على أنَّ من عجز عن فعل المأمور به كلِّه، وقدر على بعضه، فإنَّه يأتي بما أمكنه منه.

ومن أمثلة ذلك: الطهارة، فإذا قدر على بعضها وعجز عن الباقي، إما لعدم الماء، أو لمرض في بعض أعضائه دون بعض، فإنه يأتي بما قدر عليه من ذلك ويتيمم للباقي.

ومن أمثلته: الصلاة؛ فمن عجز عن فعل الفريضة قائماً صلى قاعداً، فإن عجز صلى مضطجعاً].

٤ ـ السؤال بعده ﷺ:

جاء النهي عن السؤال أو عن كثرة الأسئلة، وهذا ـ كما رأينا ـ كان في زمنه ﷺ للأسباب التي سبق الحديث عنها.

أما السؤال بعده ﷺ عن أمور الدِّين وعمَّا يجهله الإنسان المسلم ممَّا هو بحاجة إلى علمه؛ فهو أمر واجب، وقد جاء الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ومطلوب من كلِّ مسلم أن يكون على علم بما يستطيع به أن يؤدي فرائضه على الوجه الصحيح، وهذا يتطلَّب منه أن يسعى لطلب العلم، وأن يسأل عمَّا يجهل.

---

(١) رواه أحمد (٢٢٣٧٨)؛ وابن ماجه (٢٧٧).

• **وقفة تأمُّل:**

تأمَّلْتُ كلمات هذا الحديث، فإذا المخاطب به، هم المسلمون جميعاً؛ الرجال والنساء، الشباب منهم والشيوخ، الأصحَّاء والمرضى.

إنَّ كلّاً منهم له استطاعته الخاصة به، التي قد لا تكون مساوية لقدرة أخرى، وإذا ما نظرنا إلى تأثُّر هذه الاستطاعات نفسها بعامل اختلاف الزمان والمكان؛ كنَّا أمام تعدُّد من هذه الاستطاعات لا يمكن إخضاعها للإحصاء.

ومع كلِّ هذا التعدُّد والتنوُّع ـ حتى يكاد يكون لكلِّ فرد استطاعته ـ فإنَّ هذا الحديث يغطِّي جميع هذه الحالات، ويُعطي لكلِّ حالة الحكم المقدَّر بقدرها، وكأنَّه ثوب مفصَّل على مقاسها.

كلُّ ذلك بكلمات معدودات.

إنَّه كلامُ من أوتي جوامع الكلم ﷺ؛ فإنَّه وحده القادر على وضع مثل هذه الأنظمة والقوانين.

الحديث التاسع
يُحِبُّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ

عَنْ أَنَس بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قالَ:

(لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ).

رواه البخاريُّ ومسلم(١)

❁ ❁ ❁

● **مكانة الحديث:**

عدَّ أبو داود هذا الحديث من جملة الأحاديث الأربعة التي تكفي الإنسان لدينه.

● **شرح الحديث:**

قال الحافظ ابن رجب: [هذا الحديث خرَّجاه في «**الصحيحين**»، وخرَّجه الإمام أحمد، ولفظه: **(لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحبَّ للنَّاس ما يحبُّ لنفسه من الخير)**(٢).

وهذه الرواية تبين معنى الرواية المخرجة في «**الصحيحين**»، وأنَّ المراد بنفي الإيمان نفي بلوغ حقيقته ونهايته؛ فإنَّ الإيمان كثيراً ما يُنْفى

---

(١) رواه البخاري (١٣)؛ ومسلم (٤٥).

(٢) هذا الحديث ليس عند أحمد، وهو عند ابن حبان (٢٣٥)، وقال الشيخ شعيب: هو على شرط البخاري.

لانتفاء بعض أركانه وواجباته، كقوله ﷺ: **(لا يَزني الزاني حتى يزني وهو مؤمن. . .)** الحديث[١].

وقوله ﷺ: **(والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن)** قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: **(الذي لا يأمن جاره بوائقه)**[٢].

والمقصود: أن من جملة خصال الإيمان الواجبة: أن يحبَّ المرء لأخيه المؤمن ما يحبُّ لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، فإذا زال ذلك عنه، فقد نقص من إيمانه بذلك، وقد قال النبيُّ ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: **(أَحِبَّ للنَّاس ما تحبُّ لنفسك تكن مؤمناً)**[٣].

وخرَّج الإمام أحمد: من حديث معاذ رضي الله عنه: أنَّه سأل النبيَّ ﷺ عن أفضل الإيمان، فقال: **(أفضل الإيمان أن تحبَّ لله وتبغض لله، وتُعمل لسانك في ذكر الله)** قال: وماذا يا رسول الله؟ قال: **(أن تحبَّ للنَّاس ما تحبُّ لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تقول خيراً أو تصمت)**[٤].

وقد رتَّب النبي ﷺ دخول الجنة على هذه الخصلة؛ ففي «مسند» الإمام أحمد رحمه الله: عن يزيد بن أسد القسريِّ، قال: قال لي رسول الله ﷺ: **(أتحبُّ الجنة؟)** قلتُ: نعم، قال: **(فأَحِبَّ لأخيك ما تحبُّ لنفسك)**[٥].

وفي «**صحيح مسلم**» من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبيِّ

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥)؛ ومسلم (٥٧).
(٢) رواه البخاري (٦٠١٦).
(٣) رواه الترمذي (٢٣٠٥)؛ وابن ماجه (٤٢١٧).
(٤) رواه أحمد (٢٢١٣٠، ٢٢١٣٢)، طبعة الرسالة.
(٥) رواه أحمد (١٦٦٥٥)، طبعة الرسالة.

ﷺ، قال: **(من أحبَّ أن يُزَحْزح عن النَّار، ويدخل الجنَّة، فلتدركْه منيتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى النَّاس الذي يحبُّ أن يؤتى إليه)**[(١)]. انتهى ابن رجب.

❁ ❁ ❁

أقول: واستكمالاً للموضوع، أحبُّ أن أضيف «فقرات» أُبيِّن فيها كيف قام المجتمع الإسلاميُّ على الحبِّ الذي جاء في هذا الحديث:

١ ـ الحبُّ في المجتمع الإسلاميِّ:

إنَّ وصف المجتمع الإسلاميِّ وبيان القواعد التي يقوم عليها، أمر يحتاج إلى وقت طويل وكلام كثير.

ولكن من أوتي جوامع الكلم ﷺ يضع بين أيدينا هذه الصورة واضحةً ناصعةً في كلمات قليلة، بحيث ترتسم في خطوطها الواضحة آخذة أبعادها في نفس كلِّ مسلم، حتى يعرف مكانه على هذه اللَّوحة، التي هي تقرير للواقع وبيان له، كلَّما استطاع المسلمون الارتقاء إلى التطبيق لأوامر هذا الدِّين الحنيف.

جاء في الحديث المتفق عليه، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **(ترى المؤمنين في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)**[(٢)].

ـ إنَّهم جسد واحد.

ـ روحه الودُّ والحبُّ والتراحم والتعاطف.

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) رواه البخاري (٦٠١١)؛ ومسلم (٢٥٨٦).

ـ هذا الجسد شديد التماسك والترابط، فعندما يتألَّم منه عضو، يتألَّم الجسد كلُّه، لتألُّم هذا العضو.

فالروح القائمة في هذا الجسد تصل إلى كلِّ خلية فيه، فمفاصل الأعضاء لا تمنع تواصلها، وكذلك هي في الواقع، فإنَّ الحدود والحواجز الجغرافية لا تحول دون تواصل هذا الجسد من خلال وحدة هذه الروح القائمة على الحبِّ والودِّ، المنتج للتراحم والتعاطف.

إنَّ هذه الصورة للمجتمع التي أقامها الإسلام على أرض الواقع إنما وصل إليها من خلال صبغه الأفراد فيه بصبغة الإيمان، الذي يُعَدُّ الحبُّ شرطاً في استكماله.

ثم جعل من هؤلاء الأفراد «إخوة»، فاتحد المضمون وتساوى الشكل، وعندها قام البناء قويّاً متيناً، كما قال ﷺ: **(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً)** وشبك بين أصابعه[1].

فما هو دور الأخوة في هذا البناء؟.

٢ ـ الأُخوَّة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فالآية الأولى تقرِّر أنَّ الأخوة هي العلاقة التي تربط المؤمنين مع بعضهم.

وتسجل الآية الثانية امتنان الله تعالى على الصحابة من الأوس

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٦)؛ ومسلم (٢٥٨٥).

والخزرج ـ الذين كانت الحروب قائمة بينهم ـ بأنَّه سبحانه ألَّف بينهم، وليس هذا فحسب، بل ارتقى بهذا التأليف حتَّى جعله ـ بنعمته ـ بدرجة الأخوة.

وكلمة «إخوة» الواردة في الآية هي: جمع أخ.

وأخوك: مَن ولدتْه أمُّك من أبيك، فأنت وإياه تشتركان بالأب والأم.

وعلاقات القرابة الرئيسة ثلاث: الأبوة، والبنوة، والأخوة.

فعلاقة الأبوة: تعني العلاقة التي تربط الأب أو الأم بالأبناء.

وعلاقة البنوة: تعني العلاقة التي تربط الأبناء بالأب والأم.

فالأولى علاقة الأعلى بالأدنى، والثانية بالعكس.

أما «الأخوة» فهي العلاقة الرابطة بين الأخ وأخيه.

وهي بهذا المعنى علاقة مساواة، فالأخ الأول يساوي الثاني في الأب والأم، وهذا ما يفسر لنا اختيارها من قبل المنهج الإسلامي لتكون «الرمز» الذي يعبِّر عن علاقة المؤمن بالمؤمن.

فهي رابطة قوية في النَّسَب، لا ترتقي إليه أي رابطة أخرى مع ملاحظة معنى المساواة.

وهي تعني الحبَّ والإخاء بمعناه الأصيل، كما تعني عدم التفكير في تعالي الأخ على أخيه لأيِّ سبب من الأسباب، حينما تكون الفطرة في وضعها الصحيح بعيداً عن تدخل العوامل الخارجية.

وهكذا يتحوَّل المجتمع المسلم إلى إخوة.

وقد قُدِّمت هذه «الأخوة» في مطلع الحياة الإسلامية في المدينة على أخوة النَّسب، حينما آخى ﷺ بين الصَّحابة، فأصبح الأخ في الإسلام يرث أخاه المسلم، دون أخيه من النَّسَب إذا لم يكن مسلماً. ثم نسخ حكم الميراث وبقي الرابط قائماً.

إنَّ أخوة الإسلام تحمل من «الحبِّ» كلَّ ما تحمل أخوة النَّسَب، بل تزيد عليها؛ ذلك أن رباط الإيمان لا يرتقي إلى مستواه أي رابط آخر، وفي التاريخ وفي السيرة النبوية من الشواهد ما ليس خافياً على القارئ الكريم.

وهكذا أخذ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ مكانته في القلوب وفي الواقع الإسلامي.

بل أصبح اللفظ الرمز «الأخ» هو لغة الخطاب في السُّنَّة النبوية الشريفة على اتساع مساحتها، وفي كلِّ الميادين: في ميدان الأخلاق والآداب، وفي ميدان التشريع، وفي كل ميدان، وأصبح هو العنصر البارز في كلِّ خطاب.

ولعل الأمثلة خير دليل على ما سبق:

• عن أنس رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: **(لا يؤمن أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)**[١]

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(.. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه..)**[٢].

• وعنه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا ـ عباد الله ـ إخواناً.**

المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا) ويشير إلى صدره ثلاث مرات.

---

(١) رواه البخاري (١٣)؛ ومسلم (٤٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه)[١].

• وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته..)**[٢].

• وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال لي النبيُّ ﷺ: **(لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق)**[٣].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال أبو القاسم ﷺ: **(مَن أشار إلى أخيه بحديدة، فإنَّ الملائكة تلعنه..)**[٤].

• وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(لا يحلُّ للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام)**[٥].

• وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(أيما رجل قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما)**[٦].

• وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(المؤمن أخو المؤمن، فلا يحلُّ للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر)**[٧].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).
(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢)؛ ومسلم (٢٥٨٠).
(٣) رواه مسلم (٢٦٢٦).
(٤) رواه مسلم (٢٦١٦).
(٥) رواه مسلم (٢٥٦١).
(٦) رواه البخاري (٦١٠٤)؛ ومسلم (٦٠).
(٧) رواه مسلم (١٤١٤).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(يا أبا هريرة، كن ورعاً تكن أعبد النَّاس، وكن قنعاً تكن أشكر النَّاس، وأحِبَّ للنَّاس ما تحبُّ لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وأقِلَّ الضَّحك فإنَّ كثرة الضحك تميت القلب)**[١].

والأحاديث في هذا كثيرة كثيرة..

وهكذا أصبح معنى الأخوة الإيمانية هو الذي يسود المجتمع.

وإذا كان الإيمان لا يُستكمل إلا بالحبِّ، والأخوة منبع الحبِّ، فإننا نستطيع أن نقدر أين هي مكانة الحبِّ في منهج الإسلام.

وإنَّه ليكفي أن نمعن النظر في قوله ﷺ: **(لا يؤمن أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)**[٢].

فإنَّه ليس بعد ذلك من قول يقال.

٣ ـ الحبُّ الخالصُ:

رأينا ـ من خلال النصوص السابقة ـ كيف ارتقى الإسلام بالتعامل الاجتماعي ـ الماديِّ والأخلاقيِّ ـ فجعله تعاملاً بين إخوة مؤمنين، يحبُّ كلٌّ منهم لأخيه ما يحبُّه لنفسه، وهي درجة رفيعة، قلَّما يرتقي تفكير غير المسلمين فيتطلَّع إليها.

ومع ذلك فقد أراد الإسلام أن يرتقي الفرد من أبنائه إلى أن يكون حبُّه خالصاً لله، بعيداً عن كلِّ أنواع التعامل، فلا تشوبه أي شائبة ممَّا يتَّصل بالمصالح الدنيوية، وهذا ما أوضِّحه في الفقرة التالية:

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢١٧).

(٢) رواه البخاري (١٣)؛ ومسلم (٤٥).

٤ ـ حبٌّ يتجاوز المكان والزمان:

عندما يكون حبُّ المؤمن لله، وفي الله، خالصاً من الشوائب، فإنَّه لن يكون محصوراً في دائرتي المكان والزمان.

أما من حيث المكان، فإنَّ المسلم يكون في بلد ما، ثم يسمع بمسلم آخر في مكان بعيد ناءٍ، وهذا المسلم مطيع لله تعالى، متبع لرسوله ﷺ، فعَّال للخير، متَّصف بكلِّ ما يحبُّه الله تعالى، بعيد عمَّا يكره.. فإنَّه يحبه وإن لم يلتقِ به، بل ربَّما لا يتوقع أن يلتقي به..

والمسلم يفرح للمسلمين إذا أصابتهم السَّرَّاء في أيِّ مكان من العالم، وإن لم يصله من ذلك شيء، ويحزن إذا أصابتهم الضراء في أيِّ مكان من العالم، وإن لم يمسه من ذلك شيء..

أليس هذا هو الحبَّ في الله، وقد خرج من أسر المكان.

وأما من حيث الزمان، فإنَّ المسلم وهو يراجع التاريخ ويقرأ صفحاته، فإنَّه يجد في نفسه حبّاً لكلِّ من عمل من أجل رفعة الإسلام وسعادة المسلمين، ابتداء من رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم ومن بعدهم.. إلى الزمن الذي يعيش فيه، ويكره كلَّ الطغاة وفي كلِّ زمان ابتداء من أبي جهل ومن سار على نهجه.. إلى من كان على شاكلته في الزمن الذي يعيش فيه.

بل إنَّه يوغل في الزمن أكثر من ذلك، فيحبُّ موسى ويبغض فرعون، ويحبُّ أنبياء الله ورسله ويكره أعداءه في أيِّ زمان عاشوا وفي أيِّ أرض.

أليس هذا هو الحبَّ في الله، وقد خرج من إسار الزمان أيضاً.

لقد جعل الإسلام من نفس المسلم نسمة محبة للخير حيث كان، مبغضة للشر حيث كان، وهذا هو الحبُّ في الله والبغض في الله.

وهذا ما عبَّر عنه ابن عباس رضي الله عنهما بقوله:

«إنِّي لآتي على الآية من كتاب الله تعالى، فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم.

وإنِّي لأسمع بالحاكم من حكَّام المسلمين يعدل في حكمه، فأفرح به، ولعلِّي لا أقاضي إليه أبداً.

وإنِّي لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين، فأفرح به، وما لي به من سائمة»[1].

(١) هذه الفقرات مقتبسة من كتاب: محبة الله ورسوله شرط في الإيمان، لمعدِّ هذا الكتاب، نشره المكتب الإسلامي.

الحديث العاشر
قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ

عَنْ سُفْيانَ بنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رضي الله عنه، قَالَ:
قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلاً لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً بَعْدَكَ.
قَالَ: (قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ). رواه مسلم[1]

- **مكانة الحديث:**

هذا الحديث من جوامع الكَلِم الَّتي خُصَّ بها النبيُّ ﷺ، وهو من القواعد الكلِّية التي عليها مدار الأحكام، بل مدار السُّلوك الشخصيِّ للإنسان المسلم، إنَّها خمس كلمات تحدِّد الطريق، وتضع بين أيدينا البوصلة المرشدة للسَّير عليه.

وقد اخترتُه من بين أحاديث «الأربعين النووية» ليكون تمام العَقْد لهذه المجموعة المباركة التي عليها مدار الأحكام.

- **شرح الحديث:**

قال الحافظ ابن رجب: [طلب سفيان رضي الله عنه من النبيِّ ﷺ أن يعلِّمه كلاماً جامعاً لأمر الإسلام كافياً، حتَّى لا يحتاج بعده إلى غيره.

فقال له النبيُّ ﷺ: (قل: آمنت بالله، ثم استقم)، وهذا منتزع من

---

(١) رواه مسلم (٣٨).

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنَّه قرأ هذه الآية على المنبر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ فقال: لم يروغوا روغان الثعلب

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال فيها: استقاموا على أداء فرائضه.

وعن أبي العالية قال: ثمَّ أخلصوا له الدِّين والعمل.

وعن قتادة قال: استقاموا على طاعة الله تعالى.

وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: اللَّهمَّ أنت ربُّنا فارزقنا الاستقامة.

وقال الله ﷻ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

فأمَرَه أن يستقيم هو ومن تاب معه، وأن لا يجاوزوا ما أمروا به ـ وهو الطغيان ـ وأخبر أنه بصير بأعمالهم، مطَّلع عليها.

وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

قال قتادة: أُمِرَ محمد ﷺ أن يستقيم على أمر الله.

وعن الحسن، قال: لما نزلت هذه الآية شَمَّر رسول الله ﷺ فما رؤي ضاحكاً.

وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ﴾ [فصلت: ٦].

وقد أمر الله تعالى بإقامة الدين عموماً، كما قال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، وأمر بإقام الصلاة في غير موضع، كما أمر بالاستقامة على التوحيد في تلك الآيتين.

والاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدِّين القيِّم من غير تعريج عنه يُمنة ولا يُسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلِّها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلِّها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدِّين كلِّها.

❁ ❁ ❁

وفي قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت: ٦] إشارة إلى أنَّه لابد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فَيُجْبَرُ ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة.

فهو كقول النبيِّ ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: **(اتَّقِ اللهَ حيثما كنتَ، وأَتْبِعِ السيئة الحسنة تمحها)**[١].

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ الناس لن يطيقوا الاستقامة حقَّ الاستقامة، فقال: **(سدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا)**[٢]

فالسداد: هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد، كالذي يرمي إلى غرض فيصيبه.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٧)؛ ومسلم (٢٨١٨).

وقد أمر النبيُّ ﷺ عليّاً رضي الله عنه أن يسأل الله ﷻ السداد والهدى، وقال له: (**اذكر بالسداد تسديدك السهم، وبالهدى هدايتك الطريق**)[١].

والمقاربة: أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه، ولكن بشرط أن يكون مصمِّماً على قصد السداد وإصابة الغرض، فتكون مقاربته عن غير عمد.

ويدلُّ عليه قول النبيِّ ﷺ في حديث الحكم بن حزن: (**أيُّها النَّاس، إنَّكم لن تعملوا - أو لن تطيقوا - كلَّ ما أمرتُكم، ولكن سدِّدوا وأبشروا**)[٢].

والمعنى: اقصدوا التسديد والإصابة والاستقامة، فإنهم لو سدَّدوا في العمل كلِّه، لكانوا قد فعلوا ما أمروا به كلِّه.

❁ ❁ ❁

فأصل الاستقامة، استقامة القلب على التوحيد، كما فسَّر أبو بكر الصديق رضي الله عنه وغيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [الأحقاف: ١٣] بأنَّهم لم يلتفتوا إلى غيره.

فمتى استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته، وإجلاله ومهابته، ومحبته وإرادته، ورجائه ودعائه، والتوكُّل عليه، والإعراض عمَّا سواه، استقامت الجوارح كلُّها على طاعته، فإنَّ القلب هو مَلِك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه، وكذلك فُسِّر قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] بإخلاص القصد لله، وإرادته وحده لا شريك له.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٥) وغيره.

(٢) رواه أبو داود (١٠٩٦).

وأعظم ما يُراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان، فإنَّه ترجمان القلب والمعبِّر عنه؛ ولهذا لما أمر النبيُّ ﷺ سفيان بن عبد الله رضي الله عنه بالاستقامة، وصَّاه بعد ذلك بحفظ اللسان، كما جاء عند أحمد: (**قل: آمنت بالله، ثم استقم**) قلتُ: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه]. انتهى ابن رجب.

وقال الإمام ابن القيم: الاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدِّين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلَّق بالأقوال والأفعال، والأحوال، والنِّيَّات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله[1].

أقول: هذا بعض ما قيل في شرح هذا الحديث الجامع، ويظل النصُّ (**قل: آمنت بالله، ثم استقم**) فيَّاضاً بالمعاني، يتناول كلَّ الأحوال التي لم يتناولها الشُّرَّاح، فكلمة (**استقم**) تدخل في كلِّ ما يصدر عن الإنسان في ظاهره وباطنه، من تصرُّفاته المادية ـ قولاً وفعلاً ـ ومن أحواله النفسية والروحية؛ كالإخلاص والتواضع وغيرهما.

ولهذا كان هذا القول منه ﷺ: (**قل: آمنت بالله، ثم استقم**) هو الجواب الوحيد على السؤال المطروح.

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص ٢٠٣، نشرته دار القلم بدمشق.

الأحاديثُ الكلِّيةُ ومنهجُ العَمَلِ

تلك هي الأحاديث العشرة، التي قال الحفَّاظ: إنَّها تجمع أصول الإسلام، وعليها مدار أحكامه.

وقد يسأل سائل، فيقول: ماذا نعني بقولنا: الكلية؟.

فالجواب: إنَّ هذه الأحاديث ترسم الخطوط العريضة العامة، للمنهج الذي ينبغي أن يضبط للمسلم سلوكه وتصرفاته، فهي قواعد عامة كلية تندرج تحتها الجزئيات.

وحينما ندرس **العلاقات التي تربط الإنسان بما حوله** نجدها ثلاثة:

- علاقة تربطه بخالقه ﷻ.
- علاقتُه بنفسه.
- علاقة تربطه بالنَّاس.

فهذه الأحاديث بيَّنت حدودَ هذه العلائق، وفق قواعد عامَّة جاءت بها هذه الأحاديث.

وكان من حقِّ هذا المبحث أن يكون في بدء هذه الرسالة، ولكنَّه قبل الوقوف على الأحاديث وفهم ما جاء فيها من بحوث وأفكار لن يؤدِّي الغرض المطلوب.

ويحسن بي أن أقف على هذه العلائق بشيء من البيان من غير تطويل:

أولاً: علاقة الإنسان بخالقه سبحانه:

إنَّ الحديث العاشر، وهو قوله ﷺ: **(قل: آمنت بالله، ثم استقمْ)** يلخِّص المطلوب من الإنسان في حياته كلِّها، إنَّهما أمران:

- الإيمان بالله تعالى.

- والاستقامة في العمل وفق معطيات هذا الإيمان.

وجاء الحديث الأول - حديث جبريل عليه السلام - ليوضِّح تفصيلاً معالم الإيمان المطلوب: وقد اشتمل على ثلاثة أمور: أركان الإسلام الخمسة، وأركان الإيمان الستة، وبيان مقام الإحسان، وهي بمجموعها «الدِّين» الذي جاء جبريل ليعلِّمه للصَّحابة رضي الله عنهم من خلال سؤاله الرسولَ ﷺ.

فهذا الحديث يبيِّن أنَّ الإنسانَ - بل كلَّ النَّاس وكلَّ المخلوقات - عبدٌ لله تعالى؛ يتشرَّف بهذه العبودية، فيشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، ويلتزم بأداء أركان الإسلام، كما يقرُّ ويؤمن بأركان الإيمان، ومن خلال ما جاء في هذا الحديث تتحدَّد معالم العلاقة التي تربط الإنسان بخالقه.

وهذا الإيمان والاعتراف بالعبودية يستلزم طاعة المعبود طاعة مطلقة، فيما يأمر به، وفيما ينهى عنه، وبما أنَّ الرسول ﷺ هو المبلِّغ عن الله تعالى، فقد بيَّن لنا ذلك في الحديث الثامن في قوله ﷺ: **(ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتُكم به فأْتوا منه ما استطعتُم)**، وإذا كان هذا الواجب تجاه أوامره ﷺ ونواهيه، فأوامر القرآن ونواهيه من باب أولى.

وهكذا ومن هذه الأحاديث الثلاثة - الأول والثامن والعاشر - تتَّضح معالم العلاقة الأولى.

❁ ❁ ❁

ثانياً: علاقة الإنسان مع نفسه ومع ما حوله:

وتشمل هذه العلاقة الأمور التالية:

١ ـ معرفة الإنسان نفسه وغاية وجوده.

٢ ـ مواصفات العمل الَّذي يصدر عنه.

٣ ـ موقفه من الأشياء من حوله.

ويحسن أن أوضِّحَ ذلك:

١ ـ معرفة الإنسان نفسه وغاية وجوده:

وهذه المعرفة يبيِّنها الحديث الخامس، الذي يبيِّن المراحل التي يتكَوَّن فيها خلق الإنسان، وفي آخر الحديث بيان بأنَّ خاتمة المطاف في هذه الحياة، هي الفوز بدخول الجنة إن كان العمل صالحاً، وإلا فالمصير إلى النَّار.

وفي هذا حضٌّ على إحسان العمل، وهو نفسه ما جاء الحديث عنه في الحديث العاشر من قوله ﷺ: **(ثم استقم)**، فالاستقامة هي القول الصالح والعمل الصالح.

٢ ـ مواصفات العمل الذي يصدر عنه:

بما أنَّ المعوَّل في النَّجاة يوم القيامة على العمل بعد الإيمان، فقد جاءت العناية ببيان المواصفات التي ينبغي أن تتوفَّر بالعمل حتى يكون مقبولاً؛ وهي:

أ ـ أن يكون العمل صادراً عن جسم تربَّى على الطعام الطيِّب الحلال، فإنَّ الجسم الَّذي نبت من السُّحْتِ فالنَّار أولى به، وهذا ما جاء في الحديث السابع؛ وهو قوله ﷺ: **(إنَّ الله طيِّب لا يقبل إلا طيِّباً)**، ثم ذكر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وختم الحديث بقصَّة الرجل الذي يدعو فلا يُستجاب دعاؤه؛ لأنَّ مطعمه حرام ومشربه حرام.

ب ـ أن يكون الباعث على العمل، والنِّيَّة الدافعة إليه خالية من الشوائب كالرياء وما أشبهه، خالصة لله تعالى، كما جاء في الحديث الثاني؛ وهو قوله ﷺ: **(إنَّما الأعمال بالنِّيَّات)**، وبهذا يضبط الجانب الباطن لكلِّ عمل، إذ لكلِّ عمل: ظاهر مرئي، وحقيقة باطنة.

ج ـ أن يكون ظاهر العمل، موافقاً للسُّنَّة، منضبطاً مع الخطِّ العام للشرع الحنيف، وهو الأمر الَّذي جاء في الحديث الثالث من قوله ﷺ: **(من عملَ عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ)**.

وهكذا فحتَّى يكون العمل مقبولاً لا بدَّ أن يكون صحيحاً في ظاهره، صحيحاً في باطنه، صادراً عن جسم طيب ملتزم بتناول الحلال.

٣ ـ كيف يتعامل الإنسان مع الأشياء من حوله؟:

الأشياء التي تحيط بالإنسان كثيرة كثيرة، والأصل فيها «الحِلُّ» ما لم يقم دليل على التحريم، وبناء على ذلك كان الحلال بيِّناً، والحرام بيِّناً، كما جاء ذلك في الحديث الرابع: **(الحلال بيِّن، والحرام بيِّن)**، فواجب المسلم الامتناع عن تناول الحرام والبُعد عنه، وقد يكون الحرام في الطعام والشراب، وقد يكون في اللِّباس والأثاث، ويكون في النَّظَر واللَّمْس.. وكلِّ تصرفات الحياة..

وما من حرام إلا وهناك في الحلال والمباح ما يقوم مقامه ويُغني عنه.

وقد ذكر الحديث نوعاً ثالثاً، غير الحلال وغير الحرام، وهو المشتبه، الذي لم يُعرف حكمه، وواجب المسلم في أمر هذا النوع سؤال أهل الذكر؛ فإن لم يتيسَّر له ذلك؛ فليبتعد عنه استبراءً لدينه وعرضه.

❁ ❁ ❁

ثالثاً: العلاقة بالناس:

أقام الإسلام هذه العلاقة على مبدأين:

١ ـ الأخوة في المجتمع الإسلاميِّ.

٢ ـ واجب النُّصح لكلِّ مسلم.

١ ـ أما الأخوَّة:

فقد جاء تقريرها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فتعامل الفرد المسلم مع الآخر على أساس من هذا المبدأ، كما يتعامل الإنسان مع أخيه في النَّسَب.

وهذا ما جاء تقريره وتأكيده في الحديث التاسع، وهو قوله ﷺ: **(لا يؤمِن أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)**؛ فالمطلوب من المسلم أن يحبَّ للآخرين ما يحبُّ لنفسه.

٢ ـ وأما النُّصح:

فهو أمر مطلوب من كلِّ فرد لغيره من أفراد المجتمع، كما جاء ذلك في الحديث السادس.

وإذا كان النُّصح مأموراً به، فإنَّ الغشَّ ممنوعٌ ومحظور، لأنَّ هذا يتنافى مع «الأخوَّة» كما يناقض واجب النُّصح.

❁ ❁ ❁

تلك هي القواعد الكلِّية التي جاءت في هذه الأحاديث لتوضِّح التصوُّر الذي ينبغي أن يقوم في ذهن كلِّ مسلم حول دوره في هذه الحياة، ورسم سلوكه تجاه نفسه وتجاه النَّاس، وتجاه ما يأخذ وما يدع من الأشياء التي حوله.

ومن هنا كانت العناية بهذه الأحاديث وتعليمها للناشئة وتحفيظها لهم أمراً مستحسناً، فهي دستور حياة المسلم؛ الذي يوضح أنَّ كلَّ تصرُّف من تصرُّفاته للشرع فيه حكم، وينبغي أن يكون في ظلال هذا الحكم.

ويحسن بنا أن نجمل ما سبق بالخلاصة التالية:

خلاصة

بيانُ علاقاتِ الإنسانِ وتصرُّفاتِه

أولاً: عبوديته لله تعالى: وتضبطها الأحاديث:

- حديث جبريل عليه السلام.
- حديث: (قل: آمنت بالله، ثم استقم).
- حديث: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه).

ثانياً: علاقته بنفسه وما حوله

أ ـ معرفته بنفسه وغاية وجوده، ويضبطها:

- حديث: (إن أحدكم يُجمع خلقه).
- وحديث: (ثم استقم).

ب ـ مواصفات العمل الصادر عنه، ويضبطها:

- حديث: (إنما الأعمال بالنيات).
- حديث: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا).
- حديث: (إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً).

ج ـ التعامل مع الأشياء، ويضبطها:

- حديث (الحلال بيِّن، والحرام بيِّن).

ثالثاً: العلاقة بالناس: ويضبطها:

- حديث: (لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه).
- حديث: (الدِّين النصيحة).

تتمة

أَحَادِيثِ الأربعِينَ النَّوَوِيَّة

الحديث الحادي عشر
أَرْكَانُ الإِسْلَامِ

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

(بُنِيَ الإِسْلامُ عَلى خَمْسٍ: شَهادَةِ أَنْ لا إِلـه إِلَّا الله، وأَنَّ محمداً عَبْدُه ورَسُولُه، وإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتاءِ الزَّكاةِ، وَحَجِّ البَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَان). رواه البخاري ومسلم[1]

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

هذا الحديث هو بعض ما ورد في الحديث الأول حديث جبريل.

وبناء الإسلام هنا بناء معنوي، يقوم على هذه الأركان الخمسة، مثله مثل البناء الماديِّ الذي لا يقوم إلا إذا وجدتْ أركانه، وكما أنَّ البناء الماديَّ إذا انهدم بعضُ أركانه آلَ إلى السُّقوط، فكذلك البناء المعنويُّ لا يكمل إلا إذا كملتْ أركانه.

ويمتاز الركن الأول من هذه الأركان، وهو «كلمة التوحيد» بأنَّ الإنسان لا يكون مسلماً إلا إذا أعلنها وتلفَّظ بها، وبذلك ينتقل من الكفر إلى الإسلام.

---

(١) رواه البخاري (٨)؛ ومسلم (١٦).

أما بقية الأركان الأربعة فقد تعارف عليها المسلمون بأنَّها «العبادات» بالمعنى الخاصِّ.

وعلى الرغم من أنَّها «عبادات» يتوجَّه المسلم بأدائها طاعةً لله تعالى، فإنَّ في كلٍّ منها من المعاني المرتبطة ببناء النفس وبناء المجتمع ما لا يتَّسع المقام لذكره، ومع ذلك فلنقف مع كلٍّ منها وقفةً مختصرة.. تذكِّرنا ببعض هذه المعاني:

١ ـ الصلاة:

الصلاة عماد الدِّين، وهي الحاجز الذي يفصل الإنسان عن الكفر، كما ورد في «**صحيح مسلم**»: عن جابر رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: (**إنَّ بين الرجل وبين الشِّرك والكفر تركُ الصلاة**).

ولمكانتها هذه كانت عملاً يوميّاً يقوم به المسلم خمس مرات.

ومن ثمراتها في حياة الفرد والجماعة ـ إضافة إلى كونها عبادة ـ أمور:

ـ **منها**: أنَّها تنظِّم حياة الإنسان، فأوقات الصلاة معلومة، ولذا فالمسلم يجعل هذه الأوقات ثابتة في زمنه، ثم يرتِّب أموره الأخرى في الأوقات الفاصلة بينها، وبهذا يتعلَّم ترتيب أموره، وتنظيم حياته، حسب الأولويات؛ وهو أمر مهمٌّ.

ـ **ومنها**: استشعار كلِّ مسلم، وبشكل عمليٍّ، أنَّه مع بقية المسلمين على قدم المساواة؛ فلا يغترُّ بماله، أو بمكانته الاجتماعية، أو أي اعتبار آخر؛ فهو عندما يقدم إلى المسجد يقوم في الصَّفِّ مع الآخرين؛ الكبير بجانب الصغير، والغني بجانب الفقير، والأبيض بجانب الأسود.. هكذا سواسية كأسنان المشط.. وعندها تزول الفوارق عمليّاً، وتبقى إزالتها نفسيّاً مسؤولية كلِّ فرد.

ـ **ومنها**: توثيق الصِّلات الاجتماعية بين المصلِّين، فعندما يغيب

مصلٍّ أكثر من وقت، أو يغيب يوماً، فإنَّ بقية المصلين سوف يسألون عنه، لعلَّه مريض. . ، وبهذا تتوثَّق الصِّلات ويستشعرون أخوَّتهم التي عقدها الإسلام.

ـ **ومنها. . ومنها. .** إنَّها أمور كثيرة كانت تلك نماذج منها.

ـ **ومنها أخيراً:** أنَّ الصلاة تعني النظافة. . فالطَّهارة شرط من شروطها: إنَّها نظافة في الجسم، ونظافة في الثياب، ونظافة في المكان. . وإذا كانت الصلاة كل يوم خمس مرات؛ فمعنى ذلك أنَّ المسلم بحاجة إلى استمرار الحفاظ على النظافة.

تلك بعض الثمرات لعبادة الصلاة. . التي قد لا يشعر كثير من المسلمين بها، لأنَّها واقعٌ يوميٌّ يعيشونه، فلا يستشعرون مكانته وفائدته.

ولمكانة الصلاة هذه، كان فرضها في السماء ليلة الإسراء والمعراج ـ كما هو معلوم ـ وهذه خاصية لا تتوفرَّ في غيرها من العبادات.

٢ ـ الزكاة:

والزكاة عبادة أيضاً، يؤدِّيها المسلم طواعية ورضا تنفيذاً لأمر الله تعالى. . هذا هو الأصل.

ومع ذلك فهي تؤدِّي غرضاً اجتماعيّاً مهمّاً، وهو سدُّ حاجة المعوِزين. . ومساعدة المحتاجين، وهذه الثمرة نتيجة تلقائية لهذه العبادة. .

وحرصاً على مشاعر الفقير ألا يُزْري به فقرُه، فقد فرض الإسلام أن تجمعها الدولة، وتقوم هي بعد ذلك بتوزيعها، فالفقير يأخذ ما خُصِّص له كأيِّ موظف في الدولة يأخذ راتبه منها.

وعندما لا تقوم الدولة بذلك، ويقوم الأفراد بتوزيع زكاتهم

بأنفسهم، وتكون الصلة مباشرة بين الغنيِّ والفقير، فعندها لن يستشعر الغنيُّ بأيِّ فضل له؛ لأنَّه ملزم بأن يقوم بذلك أيّاً كان الآخذ، بل إنَّه ينبغي أن يكون موقفه وشعوره وهو يُعطي للفقير زكاته، كما كان زين العابدين رحمه الله يفعل؛ كان إذا جاءه الفقير رحَّب به وقال: أهلاً بمن يحمل زادنا إلى الآخرة.. إنَّه معنى سَامٍ، وهو في سموِّه لا يجاوز الحقيقة التي فرضها الإسلام.

٣ ـ الصوم:

والصوم عبادة من العبادات، قال الله في حقِّها ـ كما في الحديث القدسيِّ المتفق عليه ـ: **(كلُّ عمل ابن آدم له، إلَّا الصيام، فإنَّه لي وأنا أجزي به)**.

وما هذه الميزة إلا لأنَّ الصوم تكون فيه الرقابة على الصائم من نفسه على نفسه، فهو قائم بهذه العبادة وإن كان منفرداً لا يراه أحد... وكما ورد في تتمة الحديث السابق عند البخاريِّ قوله تعالى: **(يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي)**.

ـ **ومن ثمرات الصيام الكثيرة**: أنَّ الفرد يتربى على الأمانة، وأن تكون رقابتُه على نفسه، وهو في هذه الحال يتعلَّم كيف يطبِّق الحديث الشريف: **(اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)** فهو لا يأكل ولا يشرب وهو خالٍ لا يراه أحد، لأنَّه يشعر أنَّ الله تعالى يراه.. وبهذه الطريقة يتعلَّم كيف يرتقي إلى مقام الإحسان.

ـ **ومنها**: ذلك المظهر الاجتماعيُّ في البلد الواحد، كلُّهم يفطرون في وقت واحد، وكأنَّهم على مائدة واحدة وإن كان كلٌّ منهم في بيته.

ـ **ومنها**: أنَّ الصيام وإن كان امتناعاً عن الطعام والشراب والشهوة، فهو تربية سلوكية وأخلاقية أيضاً، كما جاء في الحديث

السابق: **(فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحدٌ أو قاتله؛ فليقلْ: إنِّي امرؤ صائم)**.

ـ ومنها.. ومنها..

وهنا خطأ أحِبُّ أن أنبِّه إليه: وهو أنَّ بعض الوعَّاظ يرى أن من فوائد الصيام: أن يتذكَّر الغنيُّ جوع الفقير فيتصدَّق عليه.

ولو كان الأمر كذلك فمن الحقِّ أن نتساءل: لماذا إذن كلِّف الفقير بالصيام، وماذا سوف يتذكَّر بصيامه؟.

إنَّ معالجة مشكلة الفقر لم يتركها الله سبحانه لمشاعر النَّاس، بل أقام لها فرضاً قائماً بذاته، وركناً من أركان الإسلام هو الزكاة، وحارب أبو بكر رضي الله عنه المرتدِّين لامتناعهم عن أدائها.

فالصوم عبادة من أهدافها: تزكية النفس، وتقويم سلوكها، والارتقاء بها في معارج الإحسان.

٤ ـ الحج:

والحجُّ هو رابع هذه العبادات، وهو فرض إذا توفَّرت لدى الإنسان استطاعتان: الجسمية والمالية.

فالجسمية: بحيث يكون قادراً على السفر وتحمُّل مشاقِّه.

والمالية: بحيث يكون لديه النفقة الكافية لذهابه وإيابه، ومؤنة أهله مدة غيابه.

وهذا من رحمة الله تعالى بالمسلمين أن جعله على المستطيع.

وفي الحجِّ معانٍ كثيرة شأنه شأن بقية العبادات:

ـ ويأتي في مقدمتها العبودية الكاملة الخالصة لله تعالى في أداء مناسك لا يدرك العقلُ حكمتَها، كالطواف والسَّعي والرمي..

ـ **ومنها**: استشعار المرء بيوم عرفة يومَ القيامة وازدحام النَّاس.. وذلك الموقف العظيم..

ـ **ومنها**: غياب الفوارق بين النَّاس في اللِّباس، فكلُّ رجل منهم لا يستره إلا إزار ورداء، وهو لباس واحد.. ولئن كانت الصلاة تجعل النَّاس يقفون في صفٍّ واحد دون تمييز بينهم في المكان الذي يقف فيه كلٌّ منهم، فإنَّ الحج يتقدَّم مدى أبعد؛ حيث يجمعهم في مكان واحد، ثم ينزع الألبسة التي يتميَّز بها بعضهم عن بعض، ليجعلهم في لباس موحَّد، كلٌّ منهم مكشوف الرأس، عاري القدمين.. وبهذا تغيب الفوارق، ويجلجل في ذاك الموقف صدى صوته ﷺ عندما قال: (**كلكم لآدم وآدم من تراب...**) فلا ينبغي لأحد أن يتعالى على أحد، ولا ينبغي له أن يرى لنفسه فضلاً على الآخرين مهما كان شأنه.

والمعاني كثيرة كثيرة.

وبعد:

فالأخلاق الفاضلة هي نتاج تلقائيٌّ للعبادات..

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر..

والزكاة تزكية للنفس وطهارة لها من الشُّحِّ والبخل..

ومن لم يدع قولَ الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يَدع طعامه وشرابه..

ومن أحرم بالحجِّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال.. ومن علامات الحج المبرور أن يستمرَّ على ذلك، وأن يكون بعد حجِّه أفضلَ ممَّا كان عليه قبله.

وهذا جميعه يسير بالإنسان إلى مقام الإحسان.. والله يحبُّ المحسنين.

الحديث الثاني عشر
أُمِرْتَ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتَّى يَشْهَدُوا

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال:

(أَمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَه إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويؤتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلوا ذَلكَ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُم وَأَمْوَالَهُم، إلا بِحَقِّ الإِسْلامِ، وحِسَابُهُمْ عَلى اللهِ تَعَالى).

رواه البخاري ومسلم[(١)]

❁ ❁ ❁

• **شرح الحديث:**

ينبغي أن نفهم هذا الحديث في ظلِّ قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ فليس المقصود من الحديث أنَّه ﷺ يقصد إلى إكراه النَّاس على أن يكونوا مسلمين، وإنَّما القتال عندما يُحال بين المسلمين وتبليغ الدعوة إلى الله تعالى، فإذا سُمح للمسلمين وكانت حريتهم كاملة في تبليغ الإسلام؛ فلأيِّ شيء يكون القتال!.

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]؛ فالقتال لمنع الكفار من الصدِّ عن سبيل الله، وتعذيب

---

(١) رواه البخاري (٢٥)؛ ومسلم (٢٢).

الذين أسلموا، فإذا لم يكن هناك من يصدُّ عن دين الله وتُرِكَ للنَّاس حريتهم في الدِّين الذي يرغبون، فلا داعي للقتال.

والحديث يقرِّر أنَّ من التزم بالإسلام فعليه أن يأتي بأركانه من صلاة وزكاة، وأن الحاكم إنَّما يحاسب النَّاس على ظواهرهم، وليس مكلَّفاً أن يبحث عن بواطنهم، ولذلك كان في آخر الحديث: (**وحسابهم على الله**) فمن كان منافقاً أو فاسقاً، فطالما أنَّه يؤدي المطلوب ويلتزم به، فلا يبحث عن نيته ولا يحاسب عليها.

الحديث الثالث عشر
دَعْ مَا يَرِيْبُكَ

عن الحسن بن علي ـ سِبط رسول الله ﷺ وريحانته ـ رضي الله عنهما، قال: حفظتُ من رسول الله ﷺ:

(دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلى مَا لا يَرِيبُكَ).

رواه النَّسائي والترمذي وقال: حسن صحيح[(١)]

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

الرَّيب: الشَّكُّ، ومعنى الحديث: اترك ما تشكُّ في حلِّه، وافعل ما لا تشكُّ فيه من الحلال البيِّن الذي لا شُبهة فيه.

وقد مرَّ معنى هذا الحديث في الحديث الرابع في قوله ﷺ: **(فمن اتَّقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه).**

وما الحديث الذي بين أيدينا إلا التأكيد للمعنى السابق، وليس في معناه زيادة على ما سبق.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٨)؛ والنسائي (٥٧٢٧).

الحديث الرابع عشر
مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال:

(**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ**).

حديث حسن رواه الترمذي وغيره(١)

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

[هذا الحديث أصل عظيم من أصول الأدب، ومعناه: أن من حَسُنَ إسلامُهُ ترك ما لا يعنيه من قول وفعل، واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال.

ومعنى (يعنيه): أنَّه تتعلَّق عنايته به، ويكون من مقصده ومطلوبه. والعناية: شدة الاهتمام بالشيء.

وما يعني الإنسان المسلم، هو: ما هو مطلوب منه بحكم الشرع، فكلُّ ما طلبه الإسلام من فرائض وواجبات ونوافل في أعمال الخير، فهو ممَّا يعنيه، وممَّا ينبغي أن يقصد إليه.

وأمَّا ما لا يعنيه فهو ما سوى ذلك، ممَّا لا يُثاب عليه لو فعله أو قاله، وممَّا هو في دائرة الشبهات والحرام من الأقوال والأفعال.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧).

قال عمر بن عبد العزيز: من عدَّ كلامه من عمله، قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه.

وهو كما قال، فإنَّ كثيراً من النَّاس لا يعدُّ كلامه من عمله، فيجازف فيه، ولا يتحرى، وقد خفي هذا على معاذ بن جبل، حتى سأل النبيَّ ﷺ فقال: أنؤاخذ بما تتكلَّم به؟ فقال له ﷺ: (**ثكلتك أمُّك يا معاذ، وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!**)[(١)].

أقول: نحن بحاجة إلى مقياس نعرف ما يعنينا ممّا لا يعنينا، وأعتقد أن هذا المقياس هو: إنَّ كلَّ ما يُثاب عليه المسلم فهو ممَّا يعنيه، لأنَّه يسجَّل في صحيفة أعماله الحسنة، وما سوى ذلك فهو ممَّا لا يعنيه.

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦).

الحديث الخامس عشر
حُرْمَةُ دَمِ المُسْلِمِ

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

(لا يَحِلُّ دَمُ امرئٍ مُسْلِمٍ إلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المفَارِقُ للجَماعَةِ). رواه البخاري ومسلم(١)

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

صان الإسلام الأنفس وحرَّم الاعتداء عليها، وقد قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ومع هذا التحريم فهناك ثلاث جرائم نصَّ عليها الحديث تهدر حرمة الدَّم، إذا فعلها الإنسان استحقَّ هذه العقوبة على ما كسبت يداه.

الأولى: الثيب الزاني: أي المتزوج ـ رجلاً كان أو امرأة ـ إذا زنى؛ فعقوبته الرجم. وهذا كما قال أديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي: إنَّ الزاني هدم بيتاً فوقعت حجارتُه عليه فقتلتْه.

الثانية: قاتل النفس: فعقوبتُه القتل، فالنفس بالنفس.

الثالثة: المرتد عن دينه المفارق للجماعة: وهذا لا يُقام عليه الحدُّ

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨)؛ ومسلم (١٦٧٦).

إلا بعد منحه الفرصة الكافية لمراجعة نفسه، ويُنَاقَش في الشبهات التي طرأتْ عليه ودفعتْه إلى ردَّته، من قِبَل العلماء الربانيين.

وربَّما كانتْ ردته بسبب طارئ نفسي.. فيؤتى له بأطباء النَّفْس لعلاجه.

إنَّ إقامة الحدِّ لا تكون إلا بعد اتخاذ كلِّ الوسائل التي تعيد هذا الإنسان إلى صوابه.

وهذه الأمور جميعها من الحرام المحض الذي جاء ذكره في الحديث الرابع.

الحديث السادس عشر
فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ

عن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال:

(مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخر، فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ.

وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخر، فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ.

وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخر، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ).

رواه البخاري ومسلم(١)

● **شرح الحديث:**

قوله ﷺ: **(من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر)** فليفعل كذا وكذا، يدلُّ على أن هذه الخصال من خصال الإيمان.

والحديث يتناول ثلاثة أشياء:

الأول: (فليقلْ خيراً أو ليصمت):

والمطلوب: قول الخير، والصمت عمَّا سواه، وهذا يدلُّ على أنَّه ليس هناك كلام يستوي قوله والصَّمت عنه، بل إمَّا أن يكون خيراً، فيكون مأموراً بقوله، وإمَّا أن يكون غيرَ خير، فيكون مأموراً بالصَّمت عنه.

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٨)؛ ومسلم (٤٧).

وهذا يستدعي من المسلم أن يفكِّر فيما يريد قوله، حتَّى لا يتكلَّم حيث ينبغي له أن يصمت.

ويؤكِّد هذا ما جاء في «**الصحيحين**»: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: (**إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة ما يتبيَّن ما فيها، يزلُّ بها في النَّار أبعد ما بين المشرق والمغرب**)[1].

وبناء على ما يُفهم من هذا الحديث الشريف أنَّ كلَّ كلمة يريد أن يتكلَّم بها المسلم ينبغي أن يتفحَّصها بفكره، ويزنها قبل أن تجري على لسانه، حذراً أن تكون من النوع الذي ورد ذكره في هذا الحديث.

وقد سبق التأكيد على هذا المعنى في الحديث الرابع عشر القائل: (**من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**)، فمن ترك ما لا يعنيه سيكثر صمتُه.

الثاني: (فليكرمْ جاره):

إكرام الجار، هو الأمر الثاني المطلوب في الحديث، والإكرام كلمة عامَّة يدخل تحتها كثير من أعمال الخير، ومن حسن المعاملة.

وإذا كان المطلوب إكرام الجار؛ فهذا يعني ـ ومن باب الأولى ـ ألا يسيء إليه، أو أن يصدر عنه ما يؤذي جاره، وقد وردت الأحاديث الكثيرة التي تحذِّر من ذلك:

ـ **منها**: قوله ﷺ: (**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**) قيل: من يا رسول الله؟قال: (**من لا يأمن جارُه بوائقه**)[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٧)؛ ومسلم (٢٩٨٨).

(٢) رواه االبخاري (٦٠١٦).

ـ ومنها: قوله ﷺ: **(ما زال جبريل يوصيني بالجار حتَّى ظننتُ أنَّه سيورِّثه)**[١].

إنَّ هذه الأحاديث ـ وغيرها كثير ـ كافية لبيان كم هي عناية الإسلام بالجار.

الثالث: (فليكرمْ ضيفه):

إكرام الضيف، والمراد إحسان ضيافته، وقد ورد تفصيل ذلك في حديث أبي شريح ـ عند مسلم ـ عن النبيِّ ﷺ، قال: **(الضيافة ثلاثة أيام، وجائزتُه يوم وليلة، وما أنفق عليه بعد ذلك فهو صدقةٌ، ولا يحلُّ له أن يثوي عنده حتَّى يؤثمه)** قالوا: يا رسول الله، وكيف يؤثمه؟ قال: **(يقيمُ عنده ولا شيء له يقريه به)**[٢].

ومعنى الحديث: أنَّ إكرام الضيف والزيادة على ما هو معتاد، يكون في اليوم الأول، وفي اليومين الثاني والثالث يقدم له ما يحضره، فإذا مضت الثلاث فقد قضى حقَّه، فما زاد يكون له صدقة.

ومعنى (يؤثمه): أي يُوقِعه في الإثم، والمراد: أنَّ الضيف لا ينبغي له أن يقيم أكثر من ثلاثة أيام، فربما كان المضيف غير قادر على تحمُّل ذلك، فربما اغتاب الضيف لطول مقامه فوقع في الإثم.

واختلف الفقهاء هل الضيافة واجبة على من في الحضر ومن في البادية، أم على أهل البادية خاصة؟.

---

(١) رواه أبو داود (٥١١٢)؛ والترمذي (١٩٤٣).

(٢) رواه مسلم (٤٨).

وقد ذهب الإمام مالك وسحنون إلى أنَّها واجبة على أهل البوادي، لأنَّ المسافر يجد في المدن الفنادق ومواضع النزول وما يشتري من الأسواق[١].

(١) شرح الإمام النووي للأربعين.

الحديث السابع عشر
لَا تَغْضَبْ

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رجلاً قال للنبيِّ ﷺ: أوصني.

قال: (**لا تَغْضَبْ**) فردَّد مراراً، قال: (**لا تَغْضَبْ**). رواه البخاري[١]

● **شرح الحديث:**

هذه وصيةٌ من الرسول ﷺ بعدم الغضب، لأنَّه جماع الشَّرِّ، والابتعاد عنه جماع الخير.

وليس النهي هنا عن الغضب ذاته، فهذا أمر قد لا يملكه الإنسان، ولكن المنهي عنه هو الاندفاع معه حتى ينتج ثماره من الشر، والمطلوب من الإنسان عندما ينفعل ويغضب أن يكفَّ نفسه ما استطاع، وهذا ما جاء في الحديث الشريف.

ففي «الصحيحين»: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: (**ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**)[٢].

والصُّرعة: هو القويُّ الذي يصرع غيره كثيراً.

---

(١) رواه البخاري (٦١١٦).

(٢) رواه البخاري (٦١١٤)؛ ومسلم (٢٦٠٩).

فالمطلوب من المسلم أن يكون قادراً على أن يملك نفسه عند الغضب، لا أن يتملكه الغضب.

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة بذكر الأشياء التي تساعد على التغلُّب على الغضب، إن لم يستطع الإنسان كبح جماح نفسه:

ـ **منها**: أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ومنها: تغيير الوضع الذي يكون عليه الإنسان، فإن كان قائماً فليجلس، وإن كان جالساً فليضطجع.

ـ **ومنها**: أن يسكت.

ـ **ومنها**: الوضوء، ففي الحديث قوله ﷺ: **(إنَّ الغضب من الشيطان، وإنَّ الشيطان خُلق من النَّار، وإنَّما تُطفأ النَّار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضَّأ)**[1].

والخلاصة: إنَّ هذه الأدوية مفيدة في تسكين الغضب، ويستفاد من مجموعها أن تغيير الوضعية مفيد في ذلك، ومنه أنَّ الرجل إذا كان غضبه في البيت على بعض أهله فليخرج من البيت، فإذا سكن غضبه عاد إليه.

وكان رسول الله ﷺ يغضب إذا انتهكت حرمات الله تعالى.

وهذا من الغضب الواجب، ولكن الذي يغضب لهذا الأمر ينبغي أن يكون على فقه حتَّى لا يقع في محظور، ربما كان أكبر إثماً ممَّا غضب من أجله.

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٨٤).

الحديث الثامن عشر
إنَّ اللَّه كَتَبَ الإحْسَانَ

عن أبي يعلى شدَّاد بن أوس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

(إنَّ الله كَتَبَ الإحْسَانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، فَإذَا قَتَلْتُمْ فَأحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ).

رواه مسلم(١)

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

إنَّ الله تعالى فرض على المسلم أن يكون كلُّ عمل يقوم به على أحسن وجه ممكن، وقد اختار رسول الله ﷺ مثالين لذلك؛ هو قتل إنسان تنفيذاً لقصاص، وذبح الحيوان من أجل الأكل، والأصل أنَّ هذين الأمرين لا يتصوَّر فيهما الإحسان، ومع ذلك فالقتلة التي لا يعذَّب فيها المقتول كثيراً، والذِّبحة التي لا يعذَّب فيها الحيوان، هما من الإحسان.

واختياره ﷺ لهذين المثالين بيان إلى أنَّ الإحسان ممكن في كلِّ عمل، طالما أنَّه ممكن في هذين الأمرين.

وإذن فالمطلوب من كلِّ مسلم أن يحسن العمل الذي يمارسه، أي أن يقوم به بأحسن طريقة، أو أن يكون ما ينتجه بأحسن حال، حتَّى ولو

---

(١) رواه مسلم (١٩٥٥).

كان ذلك في كنس الطريق، وقد رأى رسول الله ﷺ غلاماً يسلخ شاة، وهو لا يحسن ذلك، فعلَّمه كيف يكون السلخ[١].

وهذا الحديث يلتقي مع الحديث السادس السابق حديث النَّصيحة، فالإنسان الذي يحسن عملَه يكون قد قام بواجب النَّصيحة لعامة المسلمين.

(١) حديث السَّلخ رواه أبو داود (١٨٥)؛ وابن ماجه (٣١٧٩).

الحديث التاسع عشر
اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُما كُنْتَ

عن أبي ذرٍّ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ، قال:
(اتَّقِ الله حَيْثُما كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ). رواه الترمذيُّ وقال: حسن، وفي بعض النسخ: حسن صحيح[(١)]

❁ ❁ ❁

- **شرح الحديث:**

إنَّ هذا الحديث يضع الأسس العامَّة التي ينبغي أن تربَّى عليها الأمَّة، وهو يضم ثلاث قواعد تغطِّي ساحة نشاط الإنسان، نذكرها كما وردت في الحديث:

الأولى: قوله ﷺ: (اتَّقِ الله حيثما كنتَ):

وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تمنعه منه.

فتقوى العبد لربِّه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من سخط ربِّه وقايةً تقيه من ذلك، وإنما يكون ذلك بفعل الطاعات واجتناب المعاصي.

والحديث يوجِّه العبد إلى استشعاره رقابة الله تعالى عليه بشكل دائم

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧)؛ وأحمد، والدارمي.

حيثما كان، سواء أكان منفرداً أو في جماعة، فهو يلتقي مع حديث: **(إن لم تكن تراه، فإنَّه يراك)**.

ويدخل في التقوى الكاملة: فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، ويدخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات.

قال عمر بن عبد العزيز: ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله: ترك ما حرَّمَ اللهُ، وأداء ما افترض الله، ومن رزق بعد ذلك خيراً، فهو خير إلى خير.

الثانية: قوله ﷺ: (وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها):

هذه الفقرة متممة للتي قبلها، فالتقوى مطلوبة، ولكن الإنسان محلٌّ للخطأ ومحلٌّ للتفريط والزلل، فقد يترك بعض المأمورات، وقد يرتكب بعض المحظورات، وللخروج من ذلك أتيح له أن يصحِّح المسار؛ بأن يقوم بعد وقوعه في عمل سيِّئ، أن يقوم بعمل صالح، فالعمل الصالح يمحو العمل السيِّئ الذي سبقه، وقد يكون ذلك بالتوبة والاستغفار.

والتوجيه إلى القيام بالعمل الصالح بعد وقوع العمل السيِّئ ورد في آيات كثيرة من القرآن الكريم:

ـ **منها**: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

ـ **ومنها**: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة.

الثالثة: قوله ﷺ: (وخالِقِ النَّاسَ بخلُق حَسَن):

والأخلاق الحسنة متعارف عليها بين الناس، وجميع الرسل جاؤوا

للتأكيد عليها، وحتى الشعوب الجاهلية تعرف الفضائل، وقد قال ﷺ: **(إنَّما بعثتُ لأتمِّمَ مكارم الأخلاق)**، ولسنا بحاجة إلى تعداد أفراد هذه الأخلاق؛ فالفرد الذي نشأ في المجتمع المسلم يعرف ماذا تعنيه كلمة **(حُسن الخلق)**.

فهذه الخصال الثلاث: تغطِّي مساحة نشاط الإنسان، كما قلتُ، فتقوى الله تعالى معناها القيام بحقوقه، ومنها ما أمر به الناس تجاه بعضهم من تبادل أعمال الخير، وفي حالة الخطأ بيَّنَ لنا المخرج، ثم جاءت الفقرة الأخيرة لتبيِّن أنَّ تعامل النَّاس بعضهم مع بعضهم الآخر ينبغي أن يقوم على أساس **(حُسن الخلق)**، وهذه درجة أعلى من **(الحق والعدل)**؛ لأنَّها تقوم على التسامح والإيثار، فإذا ساءت أخلاقهم عادوا إلى التحاكم إلى الحقِّ والعدل.

الحديث العشرون
احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ

عن عبد الله بن عباس ﷺ، قال: كنتُ خلفَ النبيِّ ﷺ يوماً فقال:

(يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلماتٍ:

احفظِ الله يَحْفَظْكَ، اِحْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ.

إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ، قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ.

وإِنِ اجْتَمَعُوا عَلى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوك إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ.

رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ).

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح(١)

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

إنَّ هذا الحديث الشريف على قلة كلماته؛ يوضح أموراً هي الأسس في أمر الاعتقاد في هذا الدِّين الحنيف.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)؛ وأحمد.

والحديث يقوم على ثلاث فقرات، كلٌّ منها تستقلُّ بفكرة:

الأولى: قوله ﷺ: (احفظِ اللهَ يحفظْكَ، احفظِ اللهَ تجدْه تجاهك):

ومعنى (**احفظ الله**): أي احفظ حدوده وحقوقه، وأوامره ونواهيه.

وحفظ ذلك: هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده، فلا يتجاوز ما أمر به إلى ما نهى عنه.

ومعنى قوله ﷺ: (**يحفظك**): يعني أنَّ من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله، فإنَّ الجزاء من جنس العمل.

وحفظ الله لعبده نوعان:

ـ **أحدهما**: حفظه له في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله.

ومن ذلك: أنَّ من حفظ الله في صباه وقوته، حفظه الله في حال كبره وضعف قوته، ومتَّعه بسمعه وبصره، وحَوْله وقوته وعقله.

ـ **النوع الثاني من الحفظ**: حفظ الله لعبده في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضِلَّة، ومن الشهوات المحرَّمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفَّاه على الإيمان.

ومعنى قوله ﷺ: (**احفظِ اللهَ تجدْه تُجاهك**) أي: أمامك، والمعنى: أن من حفظ حدود الله، وجد الله معه في كلِّ أحواله حيث توجَّه، يحوطه وينصره، ويحفظه، ويسدِّده ويوفِّقه.

الثانية: قوله ﷺ: (إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله):

وهذا هو خالص التوحيد، أن يكون قلب الإنسان متعلقاً بالله تعالى، متوكِّلاً عليه، والله ـ سبحانه ـ يحبُّ أن يُسألَ ويُرغبَ إليه في الحوائج، ويُلحَّ في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، ويطلب

من عباده أن يسألوه، وهو القادر على عطاء خلقه كلِّهم سُؤْلَهم من غير أن ينقص من ملكه شيء.

الثالثة: قوله ﷺ: (واعلم أن الأمة...) إلى آخر الحديث:

هذه الفقرة جاءت في مقام التعليل للفقرة التي قبلها، وذلك أنَّ على الإنسان أن يتَّجه بسؤاله إلى الله؛ لأنَّ النَّاس لا يقدرون على نفعه أو ضره.

كما أنَّها تستقلُّ بمعنى قائم بذاته، وهو تقرير أمر بالإيمان بالقدر، وأنَّه رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف؛ فالنَّاس لا يستطيعون نفع إنسان إلا بشيء قد كتبه الله له، ولا يستطيعون أن يضرُّوا إنساناً إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

وبعد:

• فالحديث من جوامع الكلم، فهو بهذه الكلمات المعدودة يقرِّر ويوضِّح مسائل كلية في العقيدة، يوضِّحها بلغة سهلة ميسَّرة يفهمها الصغير والكبير، وهذا من حكمته ﷺ ـ وهو سيد البلغاء ـ فالمخاطب غلام يافع، فاقتضى أن تكون الكلمات سهلة في وقعها على السامع، سهلة في وقعها على الفكر؛ ليكون قادراً على حفظها.

• والحديث يلفت النظر إلى الاستفادة من الوقت الضائع، فهذا الوقت الذي كان فيه ابن عباس راكباً خلف النبيِّ ﷺ في طريقهما إلى الغاية التي قصدها النبيُّ ﷺ، هو وقت غير مستفاد منه إلا في قطع الطريق؛ فشغله النبيُّ ﷺ بتعليم ابن عباس هذا الحديث الشريف، وهذا ينبِّهنا إلى أوقات كثيرة نضيِّعها ونحن قادرون على الاستفادة منها بطريقة أو بأخرى.

• وفي قوله ﷺ: **(يا غلام، إنِّي أعلمك كلمات)** تنبيه لابن عباس،

وبيان بأن هذه الكلمات التي يقولها ليست لمجرَّد شغل الوقت، وإنَّما هي من العلم، ولذا ينبغي أن يصغي إليها بقصد الفهم والحفظ.

وهذا تعليم لكلِّ عالم بأن يقدِّم لحديثه بما يسترعي به السَّامع للإنصات والوعي.

• وما نشكُّ بأنَّه ﷺ كان قبل أن يبدأ حديثه مع ابن عباس مشغولاً بذكر الله، فهو الذي وجَّه النَّاس إلى أن يكون لسانهم رطباً بذكر الله، وفي حديثه لابن عباس يرشدنا إلى أنَّ النفع المتعدِّي أفضل من النفع القاصر على الإنسان نفسه.

فالذكر الَّذي كان فيه ﷺ كان قاصراً على نفسه، بينما كان تعليمه لابن عباس من النفع المتعدِّي، فكم انتفع من الخلق بهذا الحديث؟.. إنهم كثير.

• وأخيراً فالحديث يرشد إلى الخطَّة التي ينبغي أن تكون في ذهن كل من يتصدَّى لتعليم الناس؛ ومن ذلك:

ـ وضوح الفكرة، وسهولة الأسلوب.

ـ ترتيب الأفكار؛ بحيث تكون في نقاط رئيسة، تأخذ مكانها في ذهن المتلقِّي.

ـ التمهيد للموضوع؛ لشدِّ انتباه السامع، كما سبق ذكر ذلك.

الحديث الحادي والعشرون
إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ

عن أبي مسعود البدريِّ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ:

(إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ). رواه البخاري[1]

❁ ❁ ❁

• **شرح الحديث:**

الحياء خلق كريم يدفع إلى الابتعاد عمَّا هو خلاف الأولى، وهو خلق من أخلاق النبيِّ ﷺ؛ فعن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياء من العذراء في خِدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»[2].

والأحاديث في مدح الحياء كثيرة:

قال عمران بن حصين رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **(الحياء لا يأتي إلا بخير)**[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: **(الإيمان بضع وسبعون**

---

(١) رواه البخاري (٦١٢٠).

(٢) رواه البخاري (٣٥٦٢)؛ ومسلم (٢٣٢٠).

(٣) رواه البخاري (٦١١٧)؛ ومسلم (٣٧).

شعبة ـ أو بضع وستون شعبة ـ فأفضلها قول: لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[١].

ومعنى الحديث: أنَّ «الحياء» خلق كريم جاء ذكره على لسان الأنبياء، بل على لسان آدم عليه السلام؛ فهو صاحب النبوة الأولى، وهذا الحديث هو ممَّا أُثر عن النبوة الأولى.

وخلاصة ما يفهم من الحديث: أنَّ من عدم هذا الخلق، فليفعل ما يشاء لأنَّه فَقَدَ الوازع والرقابة التي تمنعه من فعل الشَّرِّ، أو ما يشبه الشَّرَّ، مثله مثل الذي فقد عقله؛ فإنَّه لا أحد يسأله لِمَ فعل هذا ولِمَ ترك هذا، لأنَّه لا عقل له، وكذلك من فقد الحياء.. فإنَّه ليس محلّاً للسؤال؛ لأنَّ هذا الخلق «الحياء» مانع من فعل القبائح، فمن لم يكن له حياء، انهمك في فعل كل فحشاء ومنكر.

وجاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(استحيوا من الله حقَّ الحياء)** قلنا: يا نبي الله، إنَّا لنستحيي والحمد لله، قال: **(ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حقَّ الحياء، أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، وتتذكر الموت والبِلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء)**[٢].

وأخيراً: فإنَّ كلمة (تستحْيِ) في الحديث هي فعل مضارع من «استحيا» حذفت الياء الثانية للجزم بـ «لم».

---

(١) رواه البخاري (٩)؛ ومسلم (٩٣٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٨) وحسَّنه الألباني.

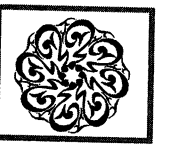

الحديث الثاني والعشرون
الاقْتِصَارُ عَلَى الفَرَائِضِ

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:

أنَّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أرأيتَ إذا صلَّيْتُ المكتوباتِ، وصُمْتُ رَمَضَانَ، وأحْلَلْتُ الحلالَ، وحرَّمْتُ الحَرَام، ولم أزدْ على ذلك شيئاً، أأدخلُ الجنَّةَ؟. قالَ: (نَعَمْ). رواه مسلم(١)

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

هذا الحديث ـ وغيره ممَّا ورد في هذا الباب ـ يدلُّ على أن فعل النوافل ليس أمراً واجباً، فإنَّ من اقتصر على أداء الفرائض والواجبات، وانتهى عن المحرمات؛ دخل الجنة، وهذا من يُسر هذا الدِّين.

وهذا لمن أدَّى الفرائضَ كاملةً غير منقوصة.

وليس كلُّ النَّاس قادراً على ذلك، ولنأخذه الصلاة مثالاً على ذلك:

فقد جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: **(إنَّ الرجلَ لينصرف وما كُتب له إلا عُشْرُ صلاته، تسعُها، ثمنُها، سبعُها، سدسُها، خُمسُها، ربعُها، ثلثُها، نصفُها)**(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٥).

(٢) رواه أبو داود (٧٩٦)؛ ومثله عن أبي هريرة في السنن الكبرى للبيهقي (٣٣٤٢).

فالحديث الشَّريف يذكر أنَّ بعض الناس لا يؤدي صلاته كاملة، والناس متفاوتون في هذا الأداء، منهم من يخرج من الصَّلاة ولم يكتب له إلا العشر، ومنهم من يكتب له النصف، ومنهم من يكتب له الثلث.

والسؤال المطروح: كيف يتدارك المسلم هذا النقص؟.

وجاءت السُّنَّة المطهَّرة لتجيب على ذلك:

فقد قال أبو هريرة ﷺ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **(إنَّ أولَ ما يُحاسَبُ به العبدُ يوم القيامة من عملِهِ صلاتُه، فإنْ صلحتْ فقد أفلح وأنجح، وإنْ فسدت فقد خاب وخسر.**

فإن انتقِصَ من فريضته شيء، قال الربُّ ﷻ: انظروا هل لعبدي من تطوُّع؟ فيكمِّل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك)[1].

وعن تميم الداري ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(إنَّ أولَ ما يُحاسب به العبدُ الصَّلاة، فإن وجد صلاته كاملة، كتبت له كاملة، وإن كان فيها نقصان، قال الله تعالى للملائكة: انظروا هل لعبدي من تطوُّع؟ فأكملوا له ما نقص من فريضته، ثمَّ الزكاة، ثمَّ الأعمال على حسب ذلك)**[2].

إنَّ هذين الحديثين ـ وما ماثلهما ـ يوضِّحان الطريقة التي يتمُّ بها الحساب يوم القيامة بالنسبة للصَّلاة والزَّكاة والفرائض الأخرى.

وبناءً على هذا: فالنقص يتمَّم من النوافل.

فليست ـ إذن ـ وظيفة التطوُّع الذي يقوم به المسلم هي التقرُّب إلى

---

(١) رواه الترمذي (٤١٣)؛ والنسائي (٤٦٤).

(٢) رواه أبو داود (٨٦٦)؛ وابن ماجه (١٤٢٦).

الله تعالى، والسَّعي للدرجات الرفيعة وحسب، بل يسبق ذلك وفاء ما انتقصه من فرائض عباداته.

وهذا يجعل الإتيان بهذه السنن والتطوُّعات والنوافل بدرجة الوجوب.

فالمسلم الذي ليس له رصيد من النَّوافل، كيف يكمل النقص المتوقع وجوده في فرائضه يوم القيامة؟.

وقد رأى بعض العلماء: أنَّه لا نوافل إلَّا للرَّسول ﷺ، لأنَّ جميع النَّاس غيره يَكْبُرُ احتمال تطرُّق النقص إلى عباداتهم.

ولا أريد بحديثي هذا أن أثبِّط الهمم، بل المراد رفع قدرتها من جانبين:

الأول: العمل على رفع مستوى الأداء في المحافظة على العبادات من الفرائض، والإتيان بها أقرب ما تكون إلى الكمال.

وقد أوصى الرسول ﷺ معاذاً رضي الله عنه فقال له: **(أوصيك يا معاذ، لا تدعنَّ في دُبُرِ كلِّ صلاة تقول: اللَّهمَّ أعنِّي على ذِكرك، وشُكرك، وحُسْنِ عبادتك)**[1].

فَحُسْنُ العبادة كان من جملة دعائه ﷺ، وممَّا أوصى به أصحابه.

الثاني: الحثُّ على الزيادة من الإتيان بالنوافل ـ في الصلاة وغيرها ـ لأنَّ لها وظيفة مهمة، وهي جبر النقص الواقع في الفرائض، ولا وسيلة غيرها للقيام بهذا الجبران، فإذا لم يكن هناك نقص، فيا سعادة هذا المسلم بذلك حيث يتحوَّل ذلك إلى رفع درجاته.

اللهم أعنَّا على ذكرك وشُكرك وحُسن عبادتك.

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)؛ والنسائي (١٣٠٢).

الحديث الثالث والعشرون
الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَانِ

عن أبي مالك الأشعريِّ ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ:

(الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَانِ، والحمدُ للهِ تَملأُ المِيزَانَ، وسُبحانَ اللهِ وَالحمدُ للهِ تَملآنِ ـ أو تَملأُ ـ مَا بَيْنَ السَّماواتِ والأَرضِ، والصَّلاةُ نورٌ، والصَّدقةُ بُرهانٌ، والصَّبرُ ضِياءٌ، والقرآن حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمعْتِقُها، أَوْ مُوبِقُها). رواه مسلم(١)

❁ ❁ ❁

- **شرح الحديث:**

اشتمل الحديث على طائفة من قواعد الإسلام وفرائضه:

١ ـ قوله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان):

الذي عليه الأكثرون: أنَّ المراد بالطُّهور هاهنا: التَّطَهُّر بالماء من الأحداث.

ومن المعلوم أنَّ الإسلام عُنِيَ بالطهارة والنظافة عناية لا نجدها في أيِّ دين آخر، فالصلاة عملٌ يوميٌّ ولا يتمُّ إلا بالوضوء، وبعض الأحيان بالغسل، والغسل مطلوب أيضاً في الأسبوع مرة وليوم الجمعة، وهو مطلوب لبعض أعمال الحج . . .

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

ليس هذا فحسب، بل والصلاة مطلوب لها: طهارة الثياب، وطهارة المكان..

إنَّ الطهارة والنظافة مَعْلَمٌ من معالم هذا الدين، ولذلك استحقت أن تكون شطر الإيمان.

٢ ـ قوله ﷺ: (والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأان ـ أو تملأ ـ ما بين السماوات والأرض):

هذا بيان لمكان هذه الكلمات وفضلها عند الله تعالى، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر؛ أحبُّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشمس**)[1].

والمسلم عندما يقول هذه الكلمات، فإنَّما يشارك طوائف من الملائكة عبادتَها في ترديد هذه الكلمات المباركات.

وقوله: (**تملأ الميزان**) و(**تملأان ما بين السماوات والأرض**) إنَّما هو تقريب لفكر السامع بنقل بيان حجم الثواب من الجانب المعنوي إلى التمثيل الحِسِّيِّ؛ فذلك ممَّا يساعد على الفهم.

٣ ـ قوله ﷺ: (الصلاةُ نورٌ، والصَّدقة برهانٌ، والصَّبر ضياءٌ):

هذه ألفاظ وردت في الحديث الشريف، ولا يُستطاع تفسيرها إلا بذكر بعض معناها، والإشارة إليها دون الخوض في حقيقتها، وتظلُّ الألفاظ النبوية هي وحدها البيان الشافي.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فهي بهذا المعنى نور يضيء

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٥).

الطريق؛ فيتَّضح للسائر فيه الهدى من الضلال، والحق من الباطل، وتأخذ الصلاة بيد صاحبها فتبعده على كلِّ ما لا يرضاه الله تعالى.

والصدقة دليل على إيمان صاحبها، وصدقه بالتزامه إخراج زكاة أمواله طيبة بها نفسه.

والصبر ضياء، والضياء لا حدود له؛ وهو ما يتوافق مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ومعنى ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي غير محدود.

والصبر أنواع كثيرة، وقد أثنى عليها القرآن الكريم، وممَّا جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٤ ـ قوله ﷺ: (والقرآن حجة لك أو عليك):

فمن قرأ القرآن وعمل به، فالقرآن حجة له، ومن لم يعمل به ولم يهتدِ بهديه، فهو حجة عليه.

٥ ـ قوله ﷺ: (كلُّ النَّاس يغدو، فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها، أو موبقها):

معناه: كلُّ إنسان يسعى لنفسه، فمنهم من يبيعها لله بطاعته، فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما، فيوبقها، أي: يهلكها.

ويستفاد من الحديث: التوجيه إلى الأمور التالية:

ـ المحافظة على طهارة الجسم والثياب ونظافتهما.

ـ أن يكون اللسان رطباً بذكر الله تعالى.

ـ التوجيه إلى فضائل الأعمال وبيان آثارها ليحرص المسلم على ملازمتها؛ كالصلاة والصدقة والصبر.

ـ أن يكون لتلاوة القرآن آثار من العمل الصالح حتى يكون القرآن حجة للإنسان لا عليه.

ـ أن يكون سعي المسلم في عمل الصالحات.. حتى يعتق نفسه وينقذها من عذاب الله تعالى.

الحديث الرابع والعشرون
يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ

عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ فيما يروي عن ربِّه ﷻ: أنَّه قال:

(يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً، فَلا تَظَالَموا.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُم ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهدُوني أَهْدِكُم.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُم جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُوني أُطْعِمْكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُم عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُوني أَكْسُكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيْعاً، فَاسْتَغْفِروني أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوني، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي، لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخركُمْ، وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخركُمْ، وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحَدٍ، مَا نَقَصَ ذَلكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخركُمْ، وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيد

وَاحِدٍ فَسَأَلُوني، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَما يُنْقِصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي، إِنَّما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيَها لَكُمْ، ثُم أُوَفِّيْكُمْ إِيَّاهَا. فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلكَ فَلا يَلُوْمَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ).

رواه مسلم(١)

❁ ❁ ❁

- **شرح الحديث:**

اشتمل هذا الحديث القدسيُّ الجليل على أمور ذات شأن من أصول الدِّين، وهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى شرح، وبخاصة أنَّه جاء مفصَّلاً في فقرات تحمل كلُّ واحدة منها فكرة، يفصل بين الفقرة والأخرى لفظ النداء (**يا عبادي**)، وهذا ما يساعد على استيعاب ما قصد إليه الحديث من أفكار وتوجيه.

ومع ذلك فسوف أشير إلى الأفكار الرئيسة التي وردت فيه:

١ ـ إنَّ الله هو الحكم العدل، ولذلك حرَّم الظلم، وطلب إلى العباد أن لا يظلم بعضهم بعضاً، وفي الحديث: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: (**اتقوا الظُّلم، فإنَّ الظُّلم ظُلمات يوم القيامة**)(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: (**اتَّقِ دعوةَ المظلوم، فإنَّها ليس بينها وبين الله حجاب**)(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٣) رواه البخاري (٢٤٤٨)؛ ومسلم (١٩).

٢ ـ وفي الحديث تعليم للنَّاس بأن يتَّجهوا في طلب حاجاتهم إلى الله.

فالخلق جميعاً مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع المضارِّ عنهم، في أمور دينهم ودنياهم، وإنَّ العباد لا يملكون شيئاً من ذلك كلِّه إن لم يتفضَّل الله عليهم به، فعليهم أن يسألوه حاجاتهم من الهداية والطعام واللباس وغير ذلك.

وفي الحديث إشارة إلى أنَّ الله تعالى يحبُّ أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم، وفي الحديث: عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(ليسأل أحدُكم ربَّه حاجته كلَّها)**[١].

وبالدعاء تكون العبودية خالصة له تعالى، والله تعالى يغضب إذا لم يُسأل، وهذا ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(إنَّه من لم يسأل الله يغضب عليه)**[٢].

٣ ـ وفي الحديث توجيه إلى طلب المغفرة من الله تعالى، فأخطاء بني آدم مستمرة بالليل والنهار، وعلاجها يكون بالاستغفار، وفي الحديث: عن النبي ﷺ: **(كلُّ بني آدم خطَّاء، وخيرُ الخطَّائين التَّوابون)**[٣].

٤ ـ وفيه بيان أنَّ العباد لا يقدرون أن يوصلوا إلى الله تعالى نفعاً ولا ضرّاً، فإنَّ الله تعالى غنيٌّ عن العالمين، لا حاجة له بطاعة العباد، ولا يعود نفعها إليه، وإنَّما هم ينتفعون بها، ولا يتضرَّر بمعاصيهم، وإنما هم يتضرَّرون بها.

والله سبحانه لا يزيد ملكه بطاعة الخلق، ولو كانوا كلُّهم بررة

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٨٢)؛ وابن حبان (٨٦٦).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٣)؛ وابن ماجه (٣٨٢٧)، وحسَّنه الألباني.

(٣) رواه الترمذي (٢٤٩٩)؛ وابن ماجه (٤٢٥١).

أتقياء، قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين، ولو كان الجنُّ والإنس كلُّهم عصاة فَجَرَة، قلوبهم على قلب أفجر رجل، فإنَّه سبحانه الغنيُّ بذاته عمَّن سواه وله الكمال المطلق.

٥ ـ وفي الحديث بيان عظمته ﷻ، وكمال قدرته، وكمال ملكه، وأنَّ خزائنه لا تنفد، ولا تنقص بالعطاء، ولو أعطى الأوَّلين والآخرين جميع ما سألوه في مقام واحد.

وقوله في الحديث: **(إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر)** معناه: أن ملكه لا ينقص، فالإبرة إذا غمست في البحر ثم أخرجت منه، ماذا تنقص من مائه؟!.

٦ ـ وفي ختام الحديث بيان أنَّ الإنسان مجزيٌّ بعمله، فالله سبحانه يُحصي أعمال عباده، ثم يُوَفِّيهم إياها بالجزاء عليها يوم القيامة.

فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى أن وفَّقه للخير، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه على تفريطه وتقصيره.

٧ ـ وفي تكرار النداء مع بدء كل فقرة من فقرات الحديث بقول: **(يا عبادي)** تكريم للإنسان بهذا الخطاب؛ فالعبودية لله شرف يضفيه الله على عباده بهذا النداء المحبَّب.

وقد وصف الله الرسول ﷺ بالعبودية في مقام التكريم له في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

فحريٌّ بمن نُودي بهذا النداء أن يلبِّي، وأن يستجيب، وأن يعمل ما طُلب منه وما وُعظ به، ففي ذلك سعادة الدنيا والآخرة.

الحديث الخامس والعشرون
ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالأُجُورِ

عن أبي ذرٍّ ﷺ: أنَّ ناساً من أصحاب رسولِ الله ﷺ قالوا للنبيّ ﷺ: يا رسول الله، ذهبَ أهلُ الدُّثور بالأُجور، يصلُّون كما نصلِّي، ويَصُومون كما نصوم، ويتصدَّقون بفضولِ أموالهم؟.

قال: (أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ الله لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟ إنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَة).

قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدُنا شَهْوَتَه، ويكون له فيها أجر؟.

قال: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ). رواه مسلم[(١)]

❁ ❁ ❁

- **شرح الحديث:**

الحديث يروي قصة جماعة من فقراء الصحابة ﷺ، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون المساواة بينهم وبين الأغنياء.

ومحلُّ الشكوى أن المسلمين جميعاً ـ فقراء وأغنياء ـ يصلُّون

---

(١) رواه مسلم (١٠٠٦).

ويصومون، فهم يشتركون في أداء هذه الفروض، ولكن الأغنياء ـ وهم أهل الدثور، وهي الأموال ـ يتصدَّقون بفضول أموالهم، بينما لا يستطيع الفقراء فعل ذلك.

وكان جواب الرسول ﷺ: أنَّ الصدقة ليست قاصرة على تقديم الأموال للمحتاجين، فأنواع الصدقات في هذا الدِّين العظيم كثيرة كثيرة، وضرب أمثلة على ذلك: فقول: «**سبحان الله**» صدقة، وقول: «**الحمد لله**» صدقة، وقول: «**لا إله إلا الله**» صدقة، وقول: «**الله أكبر**» صدقة.

ثم ذكر من أنواع الصدقات: إتيان الرجل زوجته، وهذا ما آثار استغراب الصحابة، فقال بعضهم: أيأتي أحدُنا شهوته ويكون له أجر؟ فقال: نعم، ووضح لهم ذلك زيادة في البيان بقوله: (**أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه وزر؟**) والجواب المتوقع الذي لا شك فيه هو: نعم. فقال ﷺ: (**فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**).

وفي الحديث معانٍ أخرى نحبُّ أن نتوقَّف عند بعضها:

١ ـ الملاحظ أنَّه لم يكن في حيثيات دعوى الفقراء: أنَّ الأغنياء ظلموهم حقّاً لهم، أو أنَّهم تأخَّروا عليهم بدفع أجورهم عندما عملوا لهم، أو أنَّهم استغلُّوا حاجتهم فأعطوهم أقلَّ ممَّا يستحقُّون من الأجر، أو أنَّهم أهملوا واجبهم في مدِّ يدِ المساعدة إليهم، أو أنَّهم منُّوا عليهم بتلك المساعدة.

تلك هي عادة منطلقات شكاوى الفقراء في مقابلة الأغنياء، وهدفها عادة الحصول على كسب ماديٍّ يهدف إليه الفقراء ليرفعوا مستواهم المعاشي.

ولكن فقراء الصحابة لم يكن الدافع إليهم شيء من هذا، ولكن الدافع لهم شعورهم بالتقصير في المساهمة في أعمال الخير، إنَّ عملهم

هذا نوع من أنواع حسد الغبطة، الذي يتمنَّى الإنسان أن يكون له مثل ما لغيره، دون أن يزول عن غيره ما هو فيه.

إنَّهم جميعاً ـ فقراء وأغنياء ـ في مسار واحد؛ قصدهم واحد، فكان سؤال الفقراء عن السبيل الذي يلحقهم بالرَّكْب.

وهذا فارق ما بين فقراء وأغنياء المجتمع الإسلامي، وبين فقراء وأغنياء غيره من المجتمعات.

٢ ـ والحديث يلفت النظر إلى أعمال من البرِّ كثيرة تدخل تحت عنوان الصدقات، يمكن للفقراء بل وللأغنياء أن يقوموا بها، وقد ذكر الحديث نماذج من ذلك.

ومن ذلك أيضاً: ما جاء عن حذيفة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قال: **(كلُّ معروف صدقة)**[١] فكلُّ أنواع فعل الإحسان والمعروف تدخل في ذلك، ومنها تبسُّمك في وجه أخيك.

وقد تكون الصدقة بفعل سلبيٍّ، وهو ترك العمل، ومثال ذلك: ترك الشَّرِّ، فإنه صدقة.

وفي حديث الذي جاء يسأل عن أعمال البرِّ، فقال له رسول الله ﷺ: **(تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق)** قال: يا رسول الله، أرأيتَ إن ضعفتُ عن بعض العمل؟ قال: **(تكفُّ شَرَّكَ عنِ النَّاس، فإنَّها صدقةٌ)**[٢].

ألا ما أعظم هذا الدِّين، فالمضمار فيه واسع، والفرصة مُتاحة، والكلُّ يستطيع المساهمة، والمهمُّ وجود النية والإرادة والقصد.. وعندها يتحقَّق القصد المرجوُّ من رضوان الله تعالى.

---

(١) رواه مسلم (١٠٠٥).

(٢) رواه البخاري (٢٥١٨)؛ ومسلم (٨٤).

٣ ـ في ميدان العلم يحسن استعمال ضرب المثل لتقريب الفكرة إلى ذهن السامع، وبخاصة عندما يكون الأمر مستغرباً.

فالرسول ﷺ عندما قال: (**وفي بضع أحدكم صدقة**) كان الأمر غريباً على أذهانهم، فسألوا عنه، فبيَّن لهم بتقريب الفكرة إلى أذهانهم، وهذا الجواب منه ﷺ ـ وإن كان الأصوليون يسمونه: قياس العكس ـ فهو في إطار المثال المقرب للفكرة.

وفي القرآن الكريم الكثير من ضرب الأمثال وكذلك في السُّنَّة المطهَّرة.

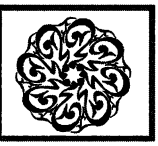

الحديث السادس والعشرون
الصَّدَقَةُ في كُلِّ يَوْمٍ

عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ:

(كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيْهِ الشَّمْسُ:

تَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ.

وتُعِينُ الرَّجُلَ عَلى دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْها مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ.

والْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ.

وَكُلُّ خُطوَةٍ تَمْشِيها إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ.

وتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ). رواه البخاري ومسلم(١)

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

مطلوب من المسلم ـ وفقاً لهذا الحديث ـ أن تكون له في كلِّ يوم صدقات، تتناسب مع عدد عظام جسمه، فالسُّلامى هي عظام الأصابع، والمقصود جميع عظام الجسم.

وبما أنَّ ذلك قد يكون أمراً صعباً، فقد عدَّد الحديثُ عدداً من

---

(١) رواه البخاري (٢٧٠٧)؛ ومسلم (١٠٠٩).

الأعمال التي يكون القيام بها من الصدقات، كالإصلاح بين النَّاس، ومساعدة الرجل في ركوب دابَّته، أو مساعدته في رفع متاعه عليها، وكذلك الكلمة الطيبة، والخطوة إلى المسجد وإماطة الأذى عن الطريق.

وهذا الحديث يلتقي مع الحديث الذي قبله، ويضيف إلى الأمثلة التي وردتْ فيه أمثلة أخرى، وهي ما ذكر في هذا الحديث.

والحديث رواه الإمام مسلم أيضاً: من حديث أبي ذر ﷺ، وفي آخره: **(وأمر بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى)**[1].

وحديث أبي ذر هذا يضع المخرج لمن لم يتحْ له إنفاذ أي صدقة من الصدقات المذكورة ومن أمثالها، أن يصلِّي ركعتي الضحى، وفي هذا من يُسر الإسلام ما فيه، كما أنَّه بيان لمكانة صلاة الضحى.

ونقف عند الفقرة الأخيرة من الحديث؛ وهي:

ـ قوله ﷺ: (وتميط الأذى عن الطريق صدقة):

إنَّ عزل ما يؤذي المسلمين في طريقهم ورفعه بالكلية أو تنحيته إلى جانب الطريق بحيث لا يؤذي المارَّ فيه، هو من الصدقات سواء أكان ذلك المعزول حجراً أو شوكاً أو عظماً ـ كما ورد ذلك في صحيح مسلم[2] ـ أو غير ذلك.

وإذا كان هذا الفعل صدقة، فينبغي أن نتوقَّف عند الطرف المقابل، وهو الذي يرمي في طريق المسلمين ما يؤذيهم.

---

(١) رواه مسلم (٧٢٠).

(٢) رواه مسلم (١٠٠٧).

ولا شكَّ أنَّ هذا العمل لن يكون في دائرة «المباح»، وقد يكون في منزلة «المكروه»، وإن اشتدَّ هذا الأذى فربَّما دخل في دائرة «الحرام».

وكثير من النَّاس يتهاون في مثل هذا العمل، ولا يتحرَّج من إلقاء ما يريد أن يتخلَّص منه في الطريق؛ من القمامة وما في معناها.

وقد يكون هذا عن جهل، ولكنَّه في بعض الأحيان ناتج عن ثقافة دخيلة مخلوطة بالجهل، ولإيضاح ذلك أذكر مثالاً من الواقع:

خرجتُ مع صاحبي من صلاة المغرب في يوم من الأيام، وقد تَقَدَّمَنا رجل إلى سيارته التي كانت بجانب المسجد، فلمَّا استقرَّ على كرسيِّ القيادة، فتح زجاج الباب وألقى بعض القمامة التي كانت في السيارة، وكان وعاء القمامة الذي وضعته البلدية لهذا الغرض لا يبعد عنه أكثر من ثلاثة أمتار، فسارع صاحبي إليه وقال له: إنَّ الوعاء قريب منك، ألا وضعت هذه الفضلات في المكان الذي أُعِدَّ لها؟ فأجابه: إنَّ عمال البلدية يقومون بذلك.

أقول: يقول هذا، وهو قد خرج من الصلاة قبل دقائق.

إنَّ هذا المنطق لم يعهده المسلمون؛ صحيح أنَّ عمال البلدية ربما يقومون بذلك، ولكن المسلم لم يعهد عنه هذا المنطق المادي.

إنَّ هذا الرجل في ميزان الحديث الذي بين أيدينا والذي فيه: أنَّ **(إماطة الأذى عن الطريق صدقة)** لو نزل من سيارته ووضع ما رماه في المكان المعدِّ له لكان سجَّل لنفسه صدقة؛ إذ أبعد عن طريق المسلمين ما يؤذيهم، ولكنَّه بفعله فَقَدَ هذا الأجر وربَّما دخل أيضاً في دائرة المكروه..

ولو ذهبتُ أضرب الأمثلة لطال المقام، ولا بدَّ من ذكر منظر يؤذيني كلَّما رأيتُه، وهو أن بعض الناس يتنخع في طريقه، فيلقي بنخامته ويتابع طريقه ولا يبالي.

وهو منظر من المناظر البشعة المؤذية المقززة، وقد أرشدنا الرسول ﷺ فيما هو أقل من ذلك إلى التصرُّف الواجب.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(البزاق في المسجد خطيئة، وكفارتُها دفنها)**[١].

وكانت أرض المسجد يومئذ من التراب والحصى، والعامل في هذه الخطيئة إيذاء المسلمين، وإذا كان هذا شأن البزاق، فإنَّ النخاعةَ أشدُّ إيذاء، وقد علَّم الرسول الكريم ﷺ النَّاس إذا اضطروا إلى ذلك، أن يدلكها الواحد منهم بنعله[٢] حتى يذهب منظرها القبيح.

إنَّنا بحاجة إلى وضع كتاب يدرَّس في الصف الأخير من المرحلة الابتدائية، حتى يتلقَّاه الجيل كلُّه في الأمَّة، وفيه توضع تعليمات الدين الإسلاميِّ الحنيف في هذه المواقف وأمثالها، وليكن عنوانه «التربية الجمالية»[٣].

وهذا العنوان نفسه هو ممَّا جاء في السُّنَّة المطهَّرة؛ ففي الحديث الصحيح: **(إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال)**[٤]، فما أحرانا أن نعلِّم الجيل ما يحبُّه الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري (٤١٥)؛ ومسلم (٥٥٢).

(٢) رواه مسلم (٥٤٤).

(٣) لي كتاب تحت عنوان: التربية الجمالية في الإسلام، نشره المكتب الإسلامي، يمكن الاستفادة منه في مثل هذا المشروع.

(٤) رواه مسلم (٩١).

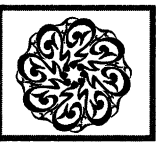

الحديث السابع والعشرون
البِرُّ وَالإِثْمُ

عن النَّوَّاس بن سمعانَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال:

(البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ ما حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ). رواه مسلم[١]

وعن وابصةَ بن مَعْبَدٍ، قال:

أتيتُ رسولَ الله ﷺ فقالَ: **(جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ البِرِّ وَالإِثْمِ؟)**.

قلتُ: نعم. قال: **(اِسْتَفْتِ قَلْبَكَ، البِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ)**. حديث حسن رويناه عن الإمامين أحمد والدارميِّ[٢]

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديثين:**

هذان الحديثان مسوقان لبيان معنى كلمتي: البر والإثم.

فالبر: اسم جامع لكلِّ خير، وكلِّ فعل مرضيٍّ، وفسَّره في الحديث الأول بحسن الخلق.

والإثم: اسم جامع للشَّرِّ، وهو الأثر الناتج عن الذنوب بجميع أنواعها.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٣).

(٢) رواه أحمد (١٧٩٩٩)، طبعة الرسالة؛ والدارمي (٢٥٣٣).

وهذا المعنى هو المعنى العام، وجاء الحديثان ليعطيا المعنى الأدق وهو الذي بيَّنه رسول الله ﷺ.

فالبر: هو ما اطمأنَّت إليه النفس، واطمأنَّ إليه القلب.

والإثم: هو ما حاك في النفس، وتردَّد في الصدر، وكره صاحبه أن يطلع عليه النَّاس.

وبهذا الإيضاح الناصع يتبيَّن معنى الكلمتين، فعندما يكون المسلم أمام واقعة يريد أن يعرف هل هي من البرِّ أم من الإثم فليرجع إلى هذا الميزان الدقيق، فما توصل إليه من خلال هذا الميزان فهو الحقُّ، وإن أفتاه النَّاس بغير ذلك.

وما جاء في هذين الحديثين وغيرهما يدلُّ على أن الحقَّ والباطل لا يلتبس أمرهما على المؤمن البصير، بل يعرف الحقَّ بالنُّور الَّذي عليه فيقبله، وينفر عن الباطل، فينكره ولا يعرفه.

وبناء على هذا: فالرجوع إلى القلوب عند الاشتباه هو الأصل، فما سكن إليه القلب، وانشرح إليه الصدر، فهو البِرُّ والحلال، وما كان خلاف ذلك، فهو الإثم والحرام.

ومن هذا المعنى كان قول ابن مسعود: ما رآه المؤمنون حسناً، فهو عند الله الحسن، وما راه المؤمنون قبيحاً، فهو عند الله قبيح[1].

(١) رواه الإمام أحمد (٣٦٠٠)، طبعة مؤسسة الرسالة.

الحديث الثامن والعشرون
مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ

عن العِرباضِ بنِ سَارية ﷺ قال:

وعظنا رسولُ الله ﷺ موعظةً وجِلَتْ منها القلوبُ، وذَرَفَتْ منها العيونُ. فقلنا: يا رسول الله، كأنَّها موعظة مودِّع، فأوصِنا. قال:

(أُوصِيكُمْ بِتَقْوى اللهِ، والسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ. فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرى اخْتِلافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّواجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ).

رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح(١)

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

وعظ الرسول ﷺ يوماً، فكانت الموعظة بليغة ـ كما هو شأنه دائماً ـ فخشعت القلوب، وذرفت العيون، وشعر الصحابة أنَّها موعظة مودع، ولعل سبب ذلك أنَّه ﷺ أشعرهم بذلك، كما فعل في خطبة حجة الوداع عندما قال: **(لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا)**.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)؛ والترمذي (٢٦٧٦).

فطلب منه الصحابة عند ذلك أن يوصيهم. فكانت هذه الوصية.

وقد اشتملت على عدد من الأمور:

١ ـ الوصية بتقوى الله؛ وهي كلمة جامعة، تعني تنفيذ أوامر الله تعالى، والانتهاء عمَّا نهى عنه.

٢ ـ السمع والطاعة لمن ولي الأمر؛ فهذه القضية فيها سعادة الدنيا، وانتظام مصالح العباد في معايشهم، وقد قال علي ﷺ: إنَّ النَّاس لا يصلحهم إلا إمام، بَرٌّ أو فاجر.

وقد جاء في الحديث: **(والسمع والطاعة وإن تَأَمَّر عليكم عبد)**، وفي حديث مسلم: **(إن أُمِّرَ عليكم عبد مجدع يقودكم بكتاب الله؛ فاسمعوا له وأطيعوا)**[1].

والمراد: عدم النظر إلى شخص من يتولَّى الأمر ولونه ومنظره، ما دام يقيم في النَّاس كتاب الله ويحكم بشريعته.

٣ ـ ثم أخبر النبيُّ ﷺ بأنَّ اختلافاً كثيراً سيحدث بعده، وأرشدنا إلى المخرج من ذلك وهو التمسُّك بسُنَّته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، وأكَّد على هذا التمسُّك بقوله: **(عضُّوا عليها بالنَّواجذ)** وهي الأضراس.

والسُّنَّة: هي الطريقة المسلوكة، فيشمل ذلك: التمسُّك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال.

وقد رأينا في سيرة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز كيف كان يسير على هدي عمر بن الخطاب ﷺ في سياسته للأمة، فكان بسلوكه هذا منفِّذاً لوصية رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه مسلم (١٨٣٨).

٤ ـ ثم جاءت الفقرة الأخيرة من الوصية وهي التحذير من البدع ومحدثات الأمور، وهي مؤكدة للفقرة التي قبلها، فمن التزم سُنَّته ﷺ وسُنَّة خلفائه، فلا بدَّ له من الحذر من المحدثات.

وقد سبق بيان ذلك عند شرح الحديث الثالث.

الحديث التاسع والعشرون
لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ

عن معاذِ بنِ جَبَل ﷺ، قال:

قلتُ: يا رسول الله، أخبرني بعملٍ يدخلني الجنَّة، ويباعدني منَ النَّار.

قال: (**لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّه لَيَسِيرٌ عَلى مَنْ يَسَّرَهُ الله عَلَيْهِ. تَعْبُدُ الله وَلا تُشْرِكُ بِهِ شَيئاً، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتي الزَّكاةَ، وتَصُومُ رَمَضانَ، وتَحجُّ البَيْتَ**).

ثم قال: (**أَلا أَدُلُّكَ عَلى أَبْوابِ الخَيْرِ؟ الصَّومُ جُنَّةٌ، والصَّدقةُ تُطفئُ الخَطِيئةَ كَما يُطفِئُ الماءُ النَّارَ، وصَلاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيلِ**) ثمَّ تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧].

ثم قال: (**أَلا أُخْبِرُكَ بَرَأْسِ الأَمرِ كُلِّهِ، وعَمودِهِ، وذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟**).

قلتُ: بلى، يا رسول الله.

قال: (**رَأسُ الأَمرِ: الإسْلامُ، وَعَمُودُهُ: الصَّلاةُ، وذُروةُ سَنَامِهِ: الجهادُ**).

ثم قال: (**أَلا أُخبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلكَ كُلِّهِ؟**).

قلتُ: بلى، يا رسول الله.

فأخذ بلسانه، قال: (**كُفَّ عَليكَ هذا**).

فقلتُ: يا نبيَّ الله، وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلَّم به؟.

فقال: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ على وجُوههم ـ أو على مناخرهم ـ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم).

رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح(١)

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

ما أعتقد أنَّ هذا الحديث يحتاج إلى شرح، فهو واضح الكلمات، بيِّنُ المعاني، مرتَّب الأفكار، وممَّا يزيده بياناً طريقة الحوار التي كانت بين معاذ وبينه ﷺ.

وإن كان من شيء نتوقَّف عنده، فهو بعض الفقه المستفاد من الحديث:

١ ـ الاستفادة من الوقت الضائع؛ فقد جاء في مقدمة الحديث قول معاذ رضي الله عنه: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في سفر، فأصبحتُ يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت.. وذكر السؤال.

وهكذا فهذا الحديث وهذا الحوار يجري في السَّفر؛ وهو وقت ضائع، فبادر معاذ وسأل سؤاله.. لشغل الوقت بما فيه الخير، وقد سبق مثل ذلك في حديث ابن عباس عندما كان خلف النبيِّ ﷺ، وقال له: **(يا غلام إنِّي أعلمك كلمات)**، وكانت المبادرة هناك من النبيِّ ﷺ، وأما المبادرة هنا فهي من معاذ.

وهنا أتذكَّر أقوال بعض المستغربين وإدلائهم بما عليه الغرب من الحرص على الوقت، وأنَّهم في سفرهم يستصحب كلٌّ منهم كتابه ليقرأ أثناء ركوبه في القطار..

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦).

لقد سبقناهم إلى ذلك بقرون، ويوم لم يكن السَّفر محلّاً ولا أهلاً لذلك، ولكن النبيَّ ﷺ وأصحابه استفادوا من الإمكانات المتاحة، فكان السُّؤال والإجابة عليه، والتقرير التعلمي هو الأمر الممكن، فاستفادوا منه.

على أنَّ الرسول ﷺ وضع بديلاً دائماً عندما يفقد الحوار، ويُفقد الكتاب؛ هو ذكر الله، فقال ﷺ: **(ليكن لسانك رطباً بذكر الله)**.

إنَّه لا فراغ لدى الفرد المسلم، فهو بين شغل بدنياه وشغل بآخرته، وفي النِّهاية تصبُّ دنياه في آخرته.

٢ ـ ونتوقف عند سؤال معاذ في قوله: «أخبرني بعمل يدخلني الجنَّة، ويباعدني من النار».

إنَّه لم يسأله عن أمر من أمور دنياه، من بناء أو تجارة أو وفاء دين.. وإنما سأله عن أمر آخرته، فهذا الأمر هو الذي كان يشغل بالهم، لقد عاشوا الآخرة بأفكارهم واهتماماتهم في الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة، وكانت أعمالهم في الدنيا وللدنيا في ضوء ما يوصلهم إلى الآخرة بسلام.

وفي قوله ﷺ: **(لقد سألتَني عن عظيم)** ما يؤكِّد هذا، فمثل هذا الأمر هو الذي ينبغي أن يهتم به ويحرص عليه.

٣ ـ يلاحظ في جوابه ﷺ أنَّه ذكر أول ما ذكر: أركان الإسلام، وما من شكٍّ في أنَّ معاذاً كان يعلم هذه الأركان، فلماذا كرر النبيُّ ﷺ ذكرها مرة أخرى؟!.

والحقيقة: أنَّ هذا ليس من باب التكرار، وإنَّما هو الجواب على السؤال، فالذي يُدْخِل الجنَّة، ويباعد عن النار؛ هو القيام بهذه

الأركان، وهي التي إذا قام الإنسان بها مقتصراً عليها دخل الجنَّة، كما ورد في أحاديث كثيرة.

وقد انتهى الجواب على سؤال معاذ عند نهاية هذه الفقرة، ولهذا لما بدأ النبيُّ ﷺ حديثه بعد ذلك الكلام؛ قال: **(ألا أدلُّك على أبواب الخير)** وهذه الأمور من باب النوافل الَّتي ترفع الدرجات.

فذكر فضل نوافل الصَّوم والصَّدقة وقيام الليل.

ثمَّ انتقل ﷺ إلى الحديث عن كلِّيات هذا الدِّين.. فقال:

(رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودُه الصَّلاة، وذروةُ سَنامِهِ الجهادُ).

وجاء عند الإمام أحمد من حديث معاذ تفسير رأس الأمر؛ حيث قال ﷺ: **(إنَّ رأسَ هذا الأمر: أن تشهدَ أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله)**.

وفيه: **(وإنَّ قوامَ هذا الأمر الصَّلاة)**.

وأما ذروة سنامه، وهو أعلى ما فيه وأرفعه، فهو الجهاد، وهذا يدلُّ على أنَّه أفضل الأعمال بعد الفرائض.

٤ ـ وقد أكَّد الحديث على خطر اللسان، وقوله ﷺ: **(وهل يكبُّ النَّاس على وجوههم في النَّار إلا حصائد ألسنتهم)** كافٍ في بيان هذا الخطر.

٥ ـ وأما قوله ﷺ: **(ثكلتْك أمُّك يا معاذ)** فهو وإن كان ظاهره الدعاء عليه بالموت، فليس المقصود منه ذلك، وهو جارٍ على طريقة العرب في المحاورات، من ذكر بعض الألفاظ التي لا يراد معناها، وإنَّما تراد للتنبيه، أو للحثِّ والإغراء والتحريض على الشيء؛ كقولهم: «تربت يداك» و«قاتلك الله» ونحو ذلك.

الحديث الثلاثون
إنَّ اللَّه فَرَضَ فَرَائِضَ

عن أبي ثعلبةَ الخُشَنِيِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال:

(إِنَّ الله فَرَضَ فَرَائِضَ، فَلا تُضَيِّعُوهَا.

وَحَدَّ حُدُوداً فَلا تَعْتَدوهَا، وَحَرَّمَ أَشْياءَ فَلا تَنْتَهِكُوها.

وَسَكتَ عَنْ أَشْيَاءَ، رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ، فَلا تَبْحَثوا عَنْها).

حديث حسن رواه الدارقطني وغيره[١]

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

قال ابن السمعاني: «من عمل بهذا الحديث، فقد حاز الثواب وأمن العقاب، لأنَّ من أدَّى الفرائض، واجتنب المحارم، ووقف عند الحدود، وترك البحث عمَّا غاب عنه، فقد استوفى أقسام الفضل؛ لأنَّ الشرائع لا تخرج عن هذه الأنواع»[٢]. اهـ.

والفرائض: هي ما فرض الله القيام به، وهو أركان الإسلام وأركان الإيمان، وهذه الفرائض لا يقبل من المسلم تركها أو التهاون في أدائها.

---

(١) رواه الدارقطني (٤٣٩٦).

(٢) جامع العلوم والحكم، عند شرح هذا الحديث.

وعلى المسلم أن يقف عند الحدود فلا يتعدَّاها، فيحلُّ ما أحلَّ الله، ويُحرِّم ما حرّم، وكذلك المحارم ينبغي عدم الاقتراب منها.

وأما ما سكت عنه الشرع فلا يبحث عنه، ولا يسأل عنه، وهذا في زمنه ﷺ.

وقد سبق معنى الحديث في الحديث الأول والرابع وغيرهما.

الحديث الحادي والثلاثون
ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ

عن سهلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعِديِّ، قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، دُلَّني على عمل إذا عملتُه أحبَّني الله وأحبَّني النَّاسُ، فقال: **(ازْهَدْ في الدُّنيا يُحِبَّكَ الله، وازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ)**[1]. حديث حسن. رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

هذا الحديث على قلة عدد كلماته ـ وبخاصة الشطر الأول منه ـ قد يكون من الصَّعب الوقوف على معناه بشكل دقيق، وقد شرحه الحافظ ابن رجب بما يزيد على ثلاثين صفحة، وقد قرأتُها أكثر من مرة، ولقلة علمي وضعف فهمي، لم أستطع أن أخرج بشيء واضح المعالم يمكن استقراره في الذهن.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ معظم العلماء ذهبوا إلى تضعيف الحديث، وإنْ حَسَّنَه الإمام النووي رحمه الله.

وقد رأيتُ أن أذكر بعض المعطيات التي تلقي الضوء على معنى الحديث.

والطريق المختصر الذي يجيب على سؤال السائل في أنه يريد عملاً

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٢).

يحبُّه الله به، أن نقول: إنَّ محابَّ الله تعالى ذكرها القرآن الكريم في آيات كثيرة، فذكر أنَّ الله يحبُّ الإحسان، والتوبة، والطهارة، والتقوى، والصَّبر، والتوكُّل، والقسط، والجهاد في سبيل الله تعالى، وكذلك يحبُّ من اتبع رسوله ﷺ.

وعلى هذا فلا بدَّ أن يكون الزُّهد في الدنيا، هو أحد هذه الأعمال، أو مجموعها.

وقد يكون هذا الطريق غير مقنع لبعض القراء، فأقول: لا بدَّ للوقوف على معنى الحديث من الوقوف على معنى كلمتي «الزهد» و«الدنيا».

١ ـ معنى الزهد:

الزهد لغة: الإعراض عن الشيء احتقاراً له واستصغاراً، وارتفاع الهمة عنه لقلَّته، يقال: شيء زهيد: أي قليل حقير.

وفي قصة يوسف عليه السلام جاء قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

هذا من حيث اللغة، وهناك تعريفات كثيرة، ليس فيها ما يقنع، إذا استثنينا ما اعتمد منها على المعنى اللغويِّ.

٢ ـ معنى الدنيا:

الدنيا: هي الزمن، فدنيا كلِّ إنسان هي الزمن الذي قُدِّر له أن يعيشه على الأرض.

جاء في كتاب «الأدب المفرد» للإمام البخاريِّ: عن أبي نضرة، قال: قال رجل منا يقال له جابر: طلبتُ حاجةً إلى عمر رضي الله عنه في خلافته، فانتهيتُ إلى المدينة ليلاً، فغدوتُ عليه، وقد أُعطيتُ فطنةً ولساناً، فأخذتُ في الدنيا فصغَّرتها، فتركتُها لا تسوى شيئاً، وإلى جنبه

رجل أبيض الثياب أبيض الشعر، فقال لما فرغت: «كل قولك كان مقارباً، إلا وقوعك في الدنيا، وهل تدري ما الدنيا؟ إنَّ الدنيا فيها بلاغنا إلى الآخرة، وفيها أعمالنا التي نُجْزى بها في الآخرة».

قال: فأخذ في الدُّنيا رجل هو أعلم بها منِّي، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، من هذا الرجل الذي إلى جنبك؟.

قال: سيد المسلمين أبي بن كعب[١].

وعن علي رضي الله عنه: أنَّه سمع رجلاً يسبُّ الدنيا، فقال:

«إنَّها لدار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنًى لمن تزوَّد منها، مسجد أحبَّاء الله، ومهبط وحيه، ومصلَّى ملائكته، ومتجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة»[٢].

هكذا فهم الصحابة الدُّنيا: إنَّها زَمَنُ العمل، وهي بهذا المعنى ليست محلّاً للذمِّ، وإنَّما يذمُّ العمل السيِّئ فيها، وليست ممَّا يزهد فيه ويترك.

٣ ـ قوله ﷺ: (ازهد في الدُّنيا يحبَّك الله):

في ضوء ما سبق يكون معنى **(ازهد في الدنيا)**: انظر إليها بعين الحقيقة في قلَّتها وصغرها وقلَّة زمنها بالنسبة للآخرة، وتعامل معها في ضوء هذا المعنى، فهي زهيدة قصيرة.

يؤيد هذا المعنى الذي ذهبتُ إليه:

ـ قوله ﷺ: **(ما لي وللدُّنيا، ما أنا في الدُّنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة، ثم راح وتركها)**[٣].

---

(١) الأدب المفرد (٤٧٦).

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، عند شرح الحديث.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٧٧)؛ وابن ماجه (٤١٠٩).

ـ وقوله ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما: **(كنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ، أو عابر سبيل)**[١].

ـ وقال الإمام أحمد: الزهد في الدنيا: قِصَرُ الأمل.

ـ وقال سفيان الثوريُّ: الزهد في الدنيا: قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء[٢].

فخلاصة القول: إن معنى **(ازهد في الدنيا)**: كن قصير الأمل، فأنت غريب، أو عابر سبيل، وأنت في دار مستأجرة توشك أن تتركها أو تُرَحَّلَ عنها.

وعلى هذا، فعابر السبيل، والمسافر وما في حكمهما، يحتاج إلى أن يأكل ويشرب ويحب بعض ما يؤكل، ويحتاج إلى أن يعمل ليقضي بأجرته حاجاته.. وهكذا.

فالزهد لا يتعارض مع هذا.

فقد كان النبيُّ ﷺ يحبُّ الطِّيب، ويحبُّ الحلو البارد، ويحبُّ لحم الذِّراع، ولبس الثياب الجميلة، وأمر بالتجمُّل، وأنكر على من لبس الثياب الدون وعنده ما يلبس به الجميل، ولم يلبس ﷺ الخشن إذا وجد غيره.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يعملون، وكان فيهم الأغنياء، وكانوا يأكلون ويتمتعون ويمزحون.. وكانوا زهاداً.

قال يحيى بن معاذ الرازي: كيف لا أحب دنيا، قُدِّر لي فيها قوت، أكتسبُ به حياة، أدرك بها طاعة، أنال بها الآخرة.

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٢) هذا والذي قبله من: مهذب مدارج السالكين، ص ١٦٦، نشرته دار القلم.

وقال سعيد بن جبير: متاع الغرور ما يُلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يلهك فليس بمتاع الغرور، ولكنَّه متاع بلاغ إلى ما هو خير منه.

وإذن فالزُّهد: هو قِصَر الأمل، واستشعارك بقرب الأجل.. وينتج عن هذا الشعور سلوك يوازن بين مدة الحياة الدنيا ومدة الحياة الآخرة، فيعمل لكلٍّ منهما بقدر بقائه فيها..

وعندئذ سيصلي كلَّ صلاة له وكأنَّها صلاة مودع.

وعندئذ سيكون مَالُهُ أحبَّ إليه من مال وارثه ـ كما جاء في الحديث[1] ـ فتكثر صدقاته.

وعندئذ سيكون حريصاً على وقته أن يصرف في طاعة الله تعالى..

وهكذا.. فالزُّهد سلوك يقدِّم الآخرة على الدنيا، مع عدم الإجحاف بحقِّ الدنيا، فلا يحتاج الزاهد أن يلبس الخشن، ولا أن يأكل الخشن، ولا أن يعذب نفسه بأصناف من المشاقِّ، وقد قال النبيُّ ﷺ: **(إنَّ الله لغنيٌّ عن تعذيب هذا نفسه)**[2] للذي نذر الحجَّ ماشياً.

وقال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧] ومَنْ فَقِهَ هذه الآية الكريمة وعمل بمقتضاها فهو الزاهد.

وممَّا يساعد على هذا الفقه ما جاء في «**صحيح الإمام مسلم**»:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال له: **(فراش**

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **(أيكم مال وارثه أحبُّ إليه من ماله؟)** قالوا: يا رسول الله، ما منَّا أحد إلا ماله أحبُّ إليه، قال: **(فإنَّ ماله ما قدَّم، ومال وارثه ما أخَّر)** رواه البخاري (٦٤٤٢).

(٢) رواه البخاري (١٨٦٥)؛ ومسلم (١٦٤٢).

للرجل، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان)[١].

وهذا يدلُّ على أن ما زاد عن الحاجة، فإنه يُخرِج صاحبه من دائرة الزُّهد في الدنيا.

والفراش الوارد ذكره في الحديث إنما هو مثال تُقاس عليه كلُّ الحاجات الأخرى.

أرجو أن أكون قد وفَّقْتُ لوضع النقاط الرئيسة التي توضِّح معنى الزهد.

٤ ـ قوله ﷺ: (وازهد فيما في أيدي النَّاس يحبَّك النَّاس):

هذه الفقرة من الحديث واضحة المعنى؛ فالزهد هنا بمعنى الترك للشيء وعدم النظر إليه.

والمسلم ـ بطبيعة تربيته ـ لا ينظر إلى ما في أيدي الناس، بل ولا يحسدهم عليه، وما في أيدي الناس وما يملكونه هو في دائرة الحرام بالنسبة إليه، فكيف يهتم به؟!.

فالزهد هنا هو: اليأس ممَّا في أيدي النَّاس وعدم التفكير فيه.

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: **(انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمةَ الله عليكم)**[٢].

وهكذا جاء التوجيهُ النبويُّ الكريم بعدم النَّظر إلى ما في أيدي الآخرين، وإذا كان النظر منهيّاً عنه، فالتطلُّع إليه، والحسد عليه منهيٌّ عنه من باب أولى.

ومن كان كذلك، فإنَّ الناس سيحبُّونه.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٨٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٣).

الحديث الثاني والثلاثون
لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

(لا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ).

حديث حسن رواه ابن ماجه والدارقطنيُّ وغيرهما مسنداً[١]

❁ ❁ ❁

- **شرح الحديث:**

قال في «النهاية»: **(لا ضرر ولا ضرار)**، الضر: ضد النفع.

ومعنى **(لا ضرر)** أي: لا يضر الرجل أخاه فينقصه شيئاً من حقِّه.

ومعنى **(الضِّرار)** أي: لا يجاريه على إِضراره بإدخال الضرر عليه.

والضرر: فعل الواحد، والضرار: فعل الاثنين.

والضرر: ابتداء الفعل، والضرار: الجزاء عليه.

وقيل: هما بمعنى واحد، وتكرارهما للتأكيد.

أقول: الضرر: هو صدور إساءة مادِّية أو معنوية من شخص إلى آخر، وهذا محرَّم في التشريع الإسلاميِّ، و**(المسلم أخو المسلم**

(١) رواه ابن ماجه عن ابن عباس (٢٣٤١)؛ والدارقطني (٣٠٧٩) عن أبي سعيد؛ ورواه مالك في الموطأ مرسلاً، وله طرق يقوي بعضها بعضاً.

لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه)[١].

وإذا كان هذا محرم ابتداءً، فهو محرم حينما يصدر ردّاً من المعتدى عليه تجاه المعتدي، لأنَّ الإسلام أقام نظام القضاء لإقامة العدل بين النَّاس.

وممَّا يدخل في عموم الحديث: أنَّ الله لم يكلِّف عباده فعل ما يضرُّهم ألبتة، ولهذا أسقط الطهارة بالماء عن المريض، وأسقط الصيام عن المريض والمسافر وطلب منهما القضاء عند الشفاء وانقطاع السفر.

وكذلك منع الإسلام تناول ما يضرُّ الإنسان من مأكل أو مشرب.

فهذا الحديث قاعدة عامة تقرر أنَّ كلَّ ما فيه ضرر للنفس أو للآخرين فهو محرم؛ سواء ما كان منه في إطار الأمور المادِّية أم في القضايا المعنوية.

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

الحديث الثالث والثلاثون
البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

(لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ وَدِمَاءَهُم، وَلكِنِ البَيِّنَةُ عَلى المُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلى مَنْ أَنْكَرَ).

حديث حسن، رواه البيهقيُّ وغيره هكذا، وبعضه في «الصحيحين»[(١)]

❁ ❁ ❁

• **شرح الحديث:**

يضع هذا الحديث الشريف آلية عمل القاضي، وينصُّ على أهمِّ قاعدة فيما يسمَّى في زمننا بأصول المحاكمات، وقبل الحديث عن ذلك نتوقَّف عند مقدمة الحديث:

ـ فقوله ﷺ: **(لو يُعطى النَّاس بدعواهم، لادَّعى رجال أموال قوم ودماءهم)** يفيدنا في أمرين:

١ ـ أنَّه ﷺ يخاطب مجتمعاً إسلاميّاً، بُني على الفضيلة، ومع ذلك فهذا المجتمع مجتمع واقعيٌّ لا يعيش في المثاليات، فكلُّ تجمُّعٍ سكانيٍّ

(١) هذا الحديث موجود في الصحيحين باستثناء قوله: **(البينة على المدعي)**، ونصه: **(لو يُعطى النَّاس بدعواهم لادَّعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدَّعى عليه)** رواه البخاري (٤٥٥٢)؛ ومسلم (١٧١١).

فيه البرُّ والفاجر، والجيد والسَّيئ، ولهذا بيَّن ﷺ أنَّه إذا لم يكن هناك مرجعية تضبط شؤون الناس، ولو أنَّ كلَّ إنسان ادَّعى أمراً صُدِّق فيه؛ لوصل الحال إلى أنَّ بعض الناس سيدَّعي أنَّ المال الذي بيد فلان هو ماله، وأنَّ فلاناً قتل فلاناً، وهكذا..

فالمجتمع ـ أي مجتمع ـ ربما وجد فيه من أمثال هؤلاء النَّاس الذين فقدوا القيم الأخلاقية.

٢ ـ وهذه الفقرة الأولى تدلُّ بمضمونها على وجوب وجود قاضٍ في البلد، يكون المرجع في فضِّ الخلافات بين النَّاس.

❁ ❁ ❁

وأما قوله ﷺ: **(البيِّنة على المدَّعي، واليمين على من أنكر)**؛ فهي القاعدة التي ينبغي أن يضعها القاضي نصب عينيه، ويكون العمل بموجبها، ولبيان معناها **أقول**:

إنَّ كلَّ خلاف لا بدَّ فيه من وجود طرفين، أحدهما يدعي أنَّ له حقّاً عند الآخر: فهناك: مُدَّعٍ، وهناك مدَّعًى عليه.

ـ فالمدَّعي: هو ـ في الظاهر وحسب قوله ـ صاحب الحقِّ.

ـ والمدَّعَى عليه: هو الذي ظَلَم الطَّرف الأوَّل وسلبه حقَّه.

وعندما يشتبه الأمر في قضية ما، من هو المدَّعي، ومن هو المدَّعَى عليه؟ فقد وضع الفقهاء قاعدة تبين ذلك فقالوا:

المدَّعي: هو الذي لا يسكت عن المطالبة، والذي إذا تُرِكَ لم يَتْرُكْ.

أما **المدَّعَى عليه**: فهو الذي إذا سُكِتَ عنه كان مسروراً ولم يحرك ساكناً، لأنَّه لا يطالب بشيء.

ـ أما معنى: **(البيِّنة على المدَّعي)**:

فهي أن يقدِّم الذي يطالِب بحقِّه إلى القاضي الدليل الذي يثبت له الحقَّ. وهي ـ في الغالب ـ أن يُحضِر شاهدين يقرَّان ويؤكِّدان أنَّ هذا الحقَّ الذي يدَّعيه ويطالب به، أنَّه له.

فإذا لم يستطع «المدَّعي» إحضار البيِّنة، ولم يكن عنده من يشهد له بحقِّه انتقلت القضية إلى الطرف الآخر وهو:

ـ قوله: **(واليمين على من أنكر)**:

فإذا لم يستطع المدَّعي إحضار البيِّنة، فإن أقرَّ له المدَّعَى عليه بحقِّه، فذلك خير، وعندها تنتهي الدعوى.

وأمَّا إذا أنكر المدعى عليه ما طولب به، فإنَّ القاضي يأمره أن يحلف يميناً، يحدِّد صيغته القاضي، بأن لاحَقَّ للطرفِ الآخر عنده.

وبهذه القاعدة المختصرة يحدِّد النبيُّ ﷺ كيفية مسار الدعوى، ومن يُطالَب بالبيِّنة، وفي حال عدمها ماذا يُطلب من الطرف الآخر.

الحديث الرابع والثلاثون
النَّهْيُ عَنِ المُـنْـكَرِ

عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ﷺ، قالَ: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلكَ أَضْعَفُ الإِيْمَانِ). رواه مسلم[١]

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

جعل الإسلام «المجتمع» ملكاً للأفراد الذين يعيشون فيه، ولكلِّ فرد فيه ملكه الخاصُّ، فهناك نوعان من التملُّك: ملك فردي خاص، وملك عام يشترك فيه الجميع.

ومن واجب كلِّ فرد أن يسعى في صلاح ملكه الخاص وعدم فساده.

ومن واجب كلِّ فرد أن يحافظ على سلامة المجتمع، ومنع من يحاول إفساده من تحقيق هدفه.

وهكذا جعل الإسلام الرقابة في قضية المحافظة على سلامة المجتمع، لكلِّ فرد من الأفراد لأنَّه شريك فيه.

وهذا ما بيَّنه رسول الله ﷺ في حديث السفينة[٢]، التي اشترك فيها

---

(١) رواه مسلم (٤٩)؛ ورواه أحمد؛ وأصحاب السنن.

(٢) رواه البخاري (٢٤٩٣).

جماعة من النَّاس، فإذا أراد أحدهم أن يخرق فيها خرقاً بدعوى أنَّه يستعمل حريته في الجزء الذي يخصُّه، فإن تركوه هلكوا جميعاً؛ لأنَّ هذا الخرق سيؤدِّي إلى غرقها كاملة، ولذا كان من واجب من رآه يفعل ذلك أن يمنعه ويحول دون قيامه بالخرق، فإن لم يستطع، صاح بصوته حتَّى يسمعه الآخرون..

ونعود إلى شرح الحديث:

وينبغي أن نعرف ماذا تعني كلمة «المنكر» التي هي محور الحديث.

قال في «النهاية»: **المنكر**: ضد المعروف، وهو كلُّ ما قبَّحه الشرع وحرَّمه وكرهه.

ومعرفة «ما هو المنكر» لن تغيب عن إنسان نشأ في المجتمع الإسلاميِّ، فعرف ما يأمر به الإسلام وما ينهى عنه، والإنسان الذي يملك الفطرة السليمة لن يجهل ما هو المنكر.

وإذا عرف المنكر، فواجب المسلم تجاهه هو:

١ ـ **(أن يغيره بيده)**: أي أن يمنع حدوثه إن لم يكن قد وقع، أو يزيله إذا كان قد وقع، إن كان قادراً على ذلك، ولم يترتب على هذا التغيير منكر آخر أكبر من المراد إزالته.

٢ ـ **(فإن لم يستطعْ فبلسانه)**: والمراد أن يبين أنَّ هذا العمل منكر، ويحاول بحكمته وبيانه أن يزيل هذا المنكر.

٣ ـ **(فإن لم يستطع فبقلبه)**: وفي حالة العجز عن التغيير باليد وباللِّسان، فإنَّ العمل الإيجابيَّ الفعَّال ينتهي دوره، وتأتي مرحلة الحفاظ على الذات، وهي أن لا يتطرق السكوت عن المنكر إلى الرضا به.

فعلى من فقد القدرة على التغيير بيده ولسانه أن ينكر ذلك بقلبه، والإنكار بالقلب لا بدَّ أن تظهر آثاره على الوجه في عدم الرضا..

فهناك ثلاث درجات للإنكار، والأخيرة منها وهي التي بالقلب **(أضعف الإيمان)**؛ أي: هي أقلُّ آثار الإيمان وثمراته. وقد أوضح ﷺ معنى ذلك بقوله: **(وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خردل)**[1].

فالذي كان إنكاره بالقلب فهو في أدنى درجة، فإذا وصل إلى حالة عدم الإنكار بالقلب، وهذا يعني الرضا بالمنكر، فقد فَقَدَ الإيمان كلَّه، لأنَّه ليس بعد هذه المرتبة مرتبة أخرى.

إنَّ الإنكار بالقلب وإن لم تكن له آثار مادية على الأرض في تغيير المنكر وإزالته، ضروريٌّ، وهو ذو قيمة كبيرة، لأنَّه يبقي صاحبه في دائرة الإيمان، وفي قلبه بذور الإيمان التي ربما تنمو وتكون في وقت آخر في دائرة الفعل.

قال الحافظ ابن رجب:

«دلَّ الحديث على وجوب إنكار المنكر بحسب القدرة عليه، وإنَّ إنكاره بالقلب لا بدَّ منه، فمن لم ينكر قلبه المنكرَ، دلَّ على ذهاب الإيمان من قلبه.

وسمع ابن مسعود رضي الله عنه رجلاً يقول: هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينهَ عن المنكر، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر.

يشير إلى أن معرفة المعروف والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد، فمن لم يعرفه هلك.

وأما الإنكار باللِّسان واليد، فإنما يجب بحسب الطاقة». اهـ.

---

(١) رواه مسلم (٥٠).

الحديث الخامس والثلاثون
حُقُوقُ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ

عن أبي هُريرة رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ:

(لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلايَبِعْ بَعْضُكُم عَلى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْواناً.

المسْلِمُ أخو المسْلِمِ، لا يَظْلِمُه، ولا يَخْذُلُه، وَلا يَكْذِبُه، وَلا يَحقِرُه.

التَّقْوَى هاهنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ.

بِحَسْبِ امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المسْلِمَ.

كُلُّ المسْلِمِ عَلى المسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ). رواه مسلم(١)

❁ ❁ ❁

• **شرح الحديث:**

إنَّ هذا الحديث وضع الهيكل العام لمقوِّمات المجتمع الإسلامي في بنيته الأخلاقية والحقوقية.

وجاء الحديث عن الأخلاق قبل الحديث عن الحقوق، لأنَّ الإسلام يجعل التعامُل وفقاً لنظام الأخلاق مقدَّماً على التعامُل

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

الحقوقيِّ، فحينما تسوء أخلاق بعض الناس وسلوكياتهم يلجؤون إلى القضاء لإقامة الحقِّ.

وسوف نتوقَّف مع كلِّ كلمة من كلمات الحديث باختصار:

١ ـ **(لا تحاسدوا)**: يعني: لا يحسد بعضكم بعضاً، والحسد قائم في طبائع البشر، وهو أن الإنسان يكره أن يتفوَّق عليه أحد من جنسه في شيء من الفضائل.

والحسد المنهيُّ عنه، هو الذي يتمنَّى فيه الإنسان زوال النعمة عن غيره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: **(إياكم والحسد، فإنَّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النَّار الحطبَ)**[1].

٢ ـ **(ولا تناجشوا)**: التناجش: هو أن تكون سلعة أو حاجة تباع بالمزاد بحيث تصير لمن يدفع أعلى سعر فيها، فيأتي إنسان فيزيد فيها، وهو لا يريد شراءها وإنَّما يفعل ذلك ليرفع السعر ويضرُّ الآخرين بذلك.

٣ ـ **(ولا تباغضوا)**: هذا نهي عن التباغض بين المسلمين في غير الله، بل على أهواء النفوس، والمراد أنَّه ينبغي على المسلم ألَّا يأتي من الأفعال ما يكون سبباً للتباغض بينه وبين الآخرين، وأكبر شيء يورث التباغض هو المشي بالنميمة.

٤ ـ **(ولا تدابروا)**: التدابُر: هو المصارمة والهجران، مأخوذ من أن يولي الرجل صاحبه دبره، ويعرض عنه بوجهه، وهو التقاطع.

وفي «**الصحيحين**»: عن أبي أيوب رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال:

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٠٣)؛ وضعفه الألباني.

(لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان، فيصدُّ هذا، ويصدُّ هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)[1].

٥ ـ **(ولا يَبِعْ بعضكم على بَيْعِ بعض)**: وصورة ذلك: أن يكون إنسان اشترى من آخر حاجة، أو كان على وشك شرائها، فيأتي رجل ويعرض عليه حاجة أخرى ليصرفه عن الشراء الذي كان بصدده من الرجل الأول، وهذا ممَّا يورث الضغائن في النفوس، ولذلك كثرت الأحاديث التي تنهى عنه.

٦ ـ **(وكونوا عباد الله إخواناً)**: هذا تعليل لما سبق، فقال: **(كونوا يا عباد الله إخواناً)** أي: تعاملوا مع بعضكم تعامل الإخوة، والأخ لا يحسد أخاه . .

٧ ـ **(المسلم أخو المسلم)**: هذا تأكيد للجملة قبلها، وهذه حقيقة قرَّرها القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وهذه الأخوة يترتَّب عليها:

٨ ـ **(لا يظلمه)**: فالأخ لا يظلم أخاه، ولا يعتدي عليه ماديّاً ولا معنويّاً، وقد سبق الكلام على الظلم.

٩ ـ **(ولا يخذله)**: أي: لا يدَّخر جهداً في نصرته في موقف يحتاج فيه إلى ذلك، من مساعدة له، أو دفع عنه لظالمٍ أو معتدٍ.

١٠ ـ **(ولا يكذبه)**: أي: لا يحدث المسلم أخاه بحديث فيكذب فيه، والكذب ليس من صفات المؤمنين، وإنما هو من صفات المنافقين.

١١ ـ **(ولا يحقره)**: أي: ينظر إليه نظرة استصغار، وتحقير، وهذه

---

(١) رواه البخاري (٦٢٣٧)؛ ومسلم (٢٥٦٠).

إنَّما تصدر عن الكبر، فالمتكبِّر ينظر إلى النَّاس ازدراء، وقد لا يراهم شيئاً، فهو ينظر إلى نفسه بعين الكمال وإلى غيره بعين النقص.

وهذا السلوك مرفوض تماماً في المجتمع الإسلامي، وكلُّ إنسان من حقِّه أن يُنظَر إليه بكلِّ الاحترام، ومن واجب الناس أن يوفوه هذا الحقَّ، ومن هنا جاء التعقيب على هذه الكلمة بقوله ﷺ: **(التقوى هاهنا)** ويشير إلى صدره ثلاث مرات.

فهذا إشارة إلى أن ظواهر النَّاس ليست هي المقياس، فلا ينبغي لبعضهم أن يزدري بعضاً، لأنَّ التقوى في الصدور، وليست هي ظاهرة ليراها النَّاس، والتقوى هي مقياس التكريم عند الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي «**الصحيح**»: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(رُبَّ أشعثَ مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه)**[1].

إنَّ المظاهر ليست هي مقياس الكرامة عند الله تعالى، فَرُبَّ رجل يحقره النَّاس لضعفه، وقلة حظِّه من الدُّنيا، هو أعظم قدراً عند الله تعالى ممَّن له قدر في الدنيا، لأنَّ الناس إنَّما يتفاوتون عنده ـ سبحانه ـ بحسب التقوى.

ولما لهذه القضية ـ قضية أن يحقر المسلم أخاه ـ من خطر، ولما تجره على المجتمع من تفسُّخ وانقسام، كان الوقوف من النبيِّ ﷺ عند الحديث عنها، والتأكيد على عظم إثمها؛ حيث قال: **(بحسب امرئ من الشَّرِّ أن يحقر أخاه المسلم)**.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٢).

هذا بيان لعظم مقدار الإثم الذي يجنيه من يحقر أخاه، حتَّى إنَّه لو لم يكن في صحيفته غير هذا الذنب لكفاه.

١٢ ـ (كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه):

وقد جاء التأكيد على هذه الأمور كثيراً، ومنها خطبة حجة الوداع؛ وكان فيها بيان لمقدار هذه الحرمة؛ حيث قال ﷺ: **(إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا)**[1].

وقد صان الإسلام هذه الأمور، ومن اعْتُدِيَ عليه في أمر من هذه الأمور فإنَّ القضاء كفيل بوصوله إلى حقِّه، هذا مع ما ينتظر من تعدَّى هذه الحرمات في الآخرة من العقاب.

(١) رواه البخاري (١٧٣٩).

الحديث السادس والثلاثون
مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً

عن أبي هُريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ:

(مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيا، نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَمَنْ يَسَّرَ عَلى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ الله عَلَيْهِ في الدُّنيا وَالآخرة.

وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً، سَتَرَهُ الله في الدُّنيا وَالآخرة.

والله في عَوْنِ العَبْدِ، مَا كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ.

وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً، سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلى الجنَّةِ.

وَمَا جَلَسَ قَوْمٌ فـي بَيْتٍ مِنْ بُيوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُم الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُم الملائِكَةُ وَذَكَرَهُم الله فِيمَنْ عِنْدَهُ.

وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ). رواه مسلم(١)

❁ ❁ ❁

• **شرح الحديث:**

هذا الحديث جامع لأمور كثيرة، منها ما هو في مساعدة الآخرين،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

ومنها ما هو في مصلحة الإنسان ذاته كطلب العلم والجلوس في المسجد.

والجزء الأول من الحديث، يكمِّل المعاني التي وردت في الحديث قبله.

ويحسن أن نتوقَّف عند كلِّ فقرة من الحديث على انفراد:

١ ـ قوله ﷺ: (من نفَّس عن مؤمن كربةً..):

الكربة: هي الشدة العظيمة التي توقع صاحبها في الكرب.

وتنفيسها: أن يخفف عنه منها، والتفريج أعظم من ذلك، وهو أن يزيل عنه الكربة، والجزاء من جنس العمل، فمن نفَّس نفَّس الله عنه، ومن فرَّج فرَّج الله عنه، وإذا كان الجزاء من جنس العمل، فذلك لا يعني أنَّ الجزاء على قدر العمل، فكرب الدنيا لا يقارن بكرب الآخرة، ولا مجال للموازنة بينها.

٢ ـ قوله ﷺ: (ومن يسَّر على معسِر..):

التيسير على المعسر في الدنيا، يكون من جهة المال بأحد أمرين: إما بإنظاره إلى ميسرة، وإما بالوضع عنه، وقد يكون بإعطائه ما يزول به إعساره، وكلُّ ذلك فضله عظيم.

وفي «**صحيح مسلم**»: عن النبيِّ ﷺ قال: (**من أنظر معسِراً، أو وضع عنه، أظلَّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه**)[1].

٣ ـ قوله ﷺ: (ومن ستر مسلماً ستره الله..):

المقصود: مَنْ ستر زلَّةً أو معصيةً لمسلم، لم يكن معلناً بها، فإنَّ الله يكافئه على عمله، ويستره في الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٦).

وفي الحديث: عن النبيِّ ﷺ: **(من ستر عورة أخيه المسلم، ستر الله عورتَه يوم القيامة)**[١].

والمطلوب من المسلم أن يستر عورات ومعاصي إخوانه، إذا لم يكونوا معلنين بها، حتى لا يدخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

٤ ـ قوله ﷺ: (والله في عَوْن العبدِ ما كان العبدُ في عون أخيه):

هذه قاعدة عامة يدخل في أفرادها «التنفيس» و«التيسير» و«الستر»؛ فكل هذا من عون العبد لأخيه، ويدخل فيها كلُّ عون يبذله مسلم لمسلم، بل ولغير المسلم، فكلمة «العبد» تدلُّ على أنَّ أي عون لإنسان من النَّاس فيه خير كبير.

وفي الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(أَحَبُّ النَّاس إلى الله أنفعهم للنَّاس، وأَحَبُّ الأعمال إلى الله سرور تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربةً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخٍ لي في حاجة أَحَبُّ إِليَّ من أَن أعتكف في هذا المسجد شهراً ـ مسجد المدينة ـ، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورَتَه، ومن كظم غيظاً لو شاء أن يمضيه أمضاه ملأَ الله قلبه رضا يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتَّى يثبتها له، ثبَّت الله قدمَه يوم تزل الأقدام)**[٢].

٥ ـ قوله ﷺ: (ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة):

سلوك الطريق لالتماس العلم، يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي،

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٤٦).

(٢) مجمع الزوائد (١٣٧٠٨)؛ وحسَّنه الألباني؛ صحيح الجامع الصغير (١٧٦).

وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء، ويدخل فيه سلوك الطرق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم، مثل: حفظه، ودراسته، ومذاكرته، ومطالعته، وكتابته، والتفهُّم له، ونحو ذلك من الطرق المعنوية التي يتوصَّل بها إلى العلم.

وطريق العلم طريق موصل إلى الجنة، لأنَّ العلم يورث الخشية من الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقد وعد الله الذين يخشونه بالمغفرة والأجر الكبير؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] إنَّه الطريق إلى الجنة.

٦ ـ قوله ﷺ: (وما جلس قوم في بيت من بيوت الله..):

هذا يدلُّ على استحباب الجلوس في المساجد لتلاوة القرآن ومدارسته، كما يدلُّ على ما هو أعم من ذلك؛ وهو الاجتماع في المساجد على دراسة القرآن مطلقاً.

ويلاحظ في الحديث التأكيد على الاجتماع (**ما جلس قوم**) ولم يقل: ما جلس رجل.

وقد أخبر ﷺ أنَّ جزاء الذين يجلسون في بيت الله يتدارسون كتاب الله، أربعة أشياء:

أحدها: تنزل السَّكينة عليهم.

الثاني: غشيان الرحمة.

الثالث: أنَّ الملائكة تحفُّ بهم

الرابع: أنَّ الله يذكرهم فيمن عنده.

أقول: وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

٧ ـ قوله ﷺ: (ومن بطَّأ به عمله، لم يُسرع به نسبُه):

معناه: أن العمل هو الذي يبلغ بالعبد درجات الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢]؛ فمن أبطأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله تعالى، لم يسرع به نسبُه فيبلغه تلك الدرجات، فإنَّ الله تعالى رتَّب الجزاء على الأعمال، لا على الأنساب.

وخير ما يوضِّح هذه الفقرة من الحديث ما جاء عن عائشة رضي الله عنها، قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قام رسولُ الله ﷺ على الصَّفا فقال: **(يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم)**[1].

(١) رواه مسلم (٢٠٥).

الحديث السابع والثلاثون
إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ فيما يروي عن ربِّه تبارك وتعالى، قال:

(إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلكَ:

فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَها الله لَهُ عِنْدَهُ حَسَنةً كَامِلَةً.

فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِها وعَمِلَها، كَتَبَها الله لهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، إلى أَضْعافٍ كَثيرَةٍ.

وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها الله له عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً.

فَإِنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها الله لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً).

رواه البخاري ومسلم(١)

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

في هذا الحديث الشريف بيان عظم فضل الله تعالى على عباده، ورحمته بهم، وكيف أنَّه يضاعف لهم الحسنات، ولا يكتب عليهم من السيئات إلا ما قاموا بعمله، وتكتب عليهم دون مضاعفة.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩١)؛ ومسلم (١٣١).

وقد تناول الحديث تفصيل كتابة الثواب والإثم على الأعمال.

١ ـ والأعمال الحسنة نوعان:

ـ الأول: أن يهمَّ الإنسان بالعمل الحسن ثم لا يعمله، والهمُّ عملٌ قلبيٌّ يبدأ من «الخاطر» الذي يخطر بالفكر، فإذا اشتدَّ وتأكَّد انتقل إلى «الهم» بالفعل؛ فالهمُّ: هو أول العزم على الفعل.

فمن همَّ بفعل الخير، ثم لم يعمله، كتب الله له به حسنة.

ـ الثاني: أن يقوم بعمل الخير وينجزه، وهذا يكتب له بالعمل عشرة أضعافه إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

٢ ـ والأعمال السيئة نوعان:

ـ الأول: أن يهم بالعمل السيِّئ ثم لا يعمله، فهذا يكتب له حسنة بعدم قيامه بذلك، وهنا بعض التفصيل:

فإن كان الذي همَّ بالسيئة لم يعملها لعارض حال دون ذلك؛ فهذا لا يكتب عليه سيئة، ولا تكتب له حسنة.

فإن همَّ بها ثم لم يعملها وتركها خوفاً من الله تعالى؛ فعند ذلك تكتب له حسنة، وقد جاء تفصيل ذلك في الحديث التالي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **(يقول الله تعالى: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتَّى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة)**[1].

وهكذا يوضِّح هذا الحديث أنَّ ترك عمل السيئة بعد الهمِّ بها، لا يكتب حسنة إلا إذا كان تركها من أجل الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠١)؛ ومسلم (١٢٩).

ـ النوع الثاني من عمل السِّيئات: أن ينجز العمل ويقوم بفعل السيئة، فهذا تكتب عليه بمثلها، دون زيادة.

وخلاصة القول: أنَّ الله تعالى من رحمته وفضله قضى أن يكون جزاء الحسنات بميزان كرمه وإحسانه، وأن يكون جزاء السيئات بميزان عدله، ولا يظلم ربُّك أحداً.

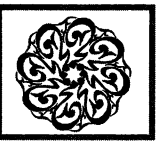

الحديث الثامن والثلاثون
مَنْ عَادَى لي وَلِيًّا آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ

عن أبي هُريرة ﷺ، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ:

(إنَّ الله تَعالى قَالَ:

مَنْ عَادَى لِيَ وَلِيّاً، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحرْبِ.

وَمَا تَقَرَّبَ إِليَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِليَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ.

وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِليَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ). رواه البخاري[1]

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

١ ـ قوله ﷺ: (إنَّ الله تعالى قال):

الأحاديث التي تبدأ بهذه المقدمة، أو ما يماثلها، يطلق عليها اسم «الأحاديث القدسية»، والحديث القدسي ينسب إلى الله تعالى، والفارق بينه وبين القرآن أمور:

منها: أنَّ القرآن فيه الإعجاز، والحديث القدسي ليس كذلك.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

ومنها: أنَّ القرآن بلفظه ومعناه من الله تعالى، والحديث القدسي معناه من الله تعالى ولفظه من الرسول ﷺ.

٢ ـ قوله: (من عادى لي وليّاً، فقد آذنتُه بالحرب):

الولي: هو المؤمن التقي، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس].

والمراد: أنَّه تحرم أذية المؤمنين ومعاداتهم.

قال الإمام النووي: فمن آذى مؤمناً، فقد آذنه الله ـ أي: أعلمه الله ـ أنه محارب له، والله تعالى إذا حارب العبد أهلكه، فليحذر الإنسان من التعرُّض لكلِّ مسلم[1].

٣ ـ قوله: (وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه):

قال الحافظ ابن رجب: «لما ذكر أن معاداة أوليائه محاربة له، ذكر بعد ذلك وصفَ أوليائِه الذين تحرم معاداتهم، وتجب موالاتهم، فذكر ما يتقرَّب به إليه، وأصل الولاية: القرب، وأصل العداوة: البُعد، فأولياء الله هم الذين يتقرَّبون إليه بما يقربهم منه». اهـ.

وقد بَيَّنَ الحديث الشريف طريقة التقرُّب إلى الله تعالى، فجعلها على درجتين:

ـ التقرُّب بأداء الفرائض.

ـ التقرُّب بأداء النوافل.

---

(١) شرح الأربعين، للنووي.

وجعل الدرجة الأولى ـ أداء الفرائض ـ مقدمة على الثانية، وجعلها الأحبَّ إليه تعالى من أداء النوافل.

وهذه قاعدة أصيلة في هذا الدِّين، وهذا المعنى هو الذي وصَّى به أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب ﷺ عندما عهد إليه بالخلافة، فقال: «إنَّ الله لا يقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة».

وفعل الفرائض يتناول أمرين: القيام بالواجبات التي أمر الله بها، واجتناب النواهي التي نهى الله عنها.

٤ ـ قوله: (ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه):

والمراد بالنوافل: هي الأعمال الزائدة على الفروض، كأداء صلوات السنن التي قبل الفروض وبعدها، وكصيام أيام أخرى غير رمضان، وككثرة تلاوة القرآن والأذكار، وأن يكون اللسان رطباً بذكر الله..

وكذلك الأعمال المتعدية النفع إلى الآخرين؛ كالصدقات، وأعمال البر، وإدخال السرور على الآخرين.. حتَّى نصل إلى إماطة الأذى عن الطريق التي هي أدنى أعمال الإيمان.

فإذا قام العبد بالنوافل ولازم فعلها ـ كما هو مفهوم قوله: **(لا يزال)** ـ أحبَّه الله تعالى.

٥ ـ قوله: (فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه..):

فإذا أحبَّ الله العبد رفعه إلى درجة الإحسان التي سبق الحديث عنها في الحديث الأول ـ حديث جبريل ـ؛ وهي: أن يعبد الله كأنَّه يراه؛ فإن لم يكن يراه فإنَّه يراه.

وهذا خير ما تفسَّر به هذه الفقرة من الحديث الشريف:

فهو إذا سمع فإنَّما يسمع ما يرضي الله، وإذا أبصر فإنَّما يبصر ما يرضي الله، وإذا حرَّك يده أو رجله فإنَّما يفعل ذلك لما يرضي الله.

فالله سبحانه يحفظ له جوارحه، ويجعلها عاملة بما يرضيه، وفيما يحبُّ.

٦ ـ قوله: (ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه):

قال الحافظ ابن رجب: يعني أنَّ هذا المحبوب المقرَّب، له منزلة عند الله خاصة، تقتضي أنَّه إذا سأل الله شيئاً، أعطاه إياه، وإن استعاذه من شيء أعاذه منه، وإن دعاه أجابه، فيصير مجابَ الدعوة لكرامته على ربِّه ﷻ.

الحديث التاسع والثلاثون
إنَّ اللَّه تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ:

(إنَّ الله تَجَاوَزَ لي عَنْ أُمَّتي: الخَطَأَ، وَالنسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ). حديث حسن، رواه ابن ماجه والبيهقي وغيرهما[(١)]

❁ ❁ ❁

• **شرح الحديث:**

أبدأ بشرح معاني الكلمات التي يدور عليها الحديث:

ـ **الخطأ**: هو أن يقصد الإنسان بفعله شيئاً، فيؤدِّي فعله إلى غير ما قصد إليه، كمن تمضمض للوضوء، فدخل الماء جوفه، وهو صائم.

فالخطأ: هو ما ليس للإنسان فيه قصد.

ـ **النسيان**: هو الغفلة عن أمر معلوم، كمن كان صائماً فأكل، غير قاصد للأكل، ولكنه ذهب عن فكره أنَّه صائم.

ـ **الإكراه**: هو أن يحمل الإنسانُ غيرَه على ما يكرهه بالوعيد، وإلزامه على فعل ذلك، وإجباره عليه، فيقوم بالفعل وهو غير راضٍ ليدفع عنه ما هو أكثر ضرراً.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٤٥).

وذلك كمن حلف ألا يدخل إلى مكان، فحُمِل وأدخل كرهاً، أو كمن هدد بالقتل ليقوم بعمل ما.

ـ **تجاوز**: معناه عفا، ومعنى (**تجاوز عن أمَّتي**) أي: عفا عنهم، ولن يؤاخذهم إذا صدر عن أحدهم بعض هذه الأمور.

ويلاحظ في هذه الأمور ـ الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه ـ أنَّها جميعاً تشترك في أمر واحد: هو فقدان القصد إلى الفعل.

فالذي تمضمض وهو صائم فدخل الماء حلقه، لم يقصد إلى الفطر.

والذي أكل وهو صائم ناسياً، لم يقصد إلى الفطر حتماً.

والذي حمل فأدخل إلى مكان حلف ألا يدخله، كان ذلك بغير إرادة ولا قصد منه.

والإسلام يجعل الإنسان مسؤولاً عن الفعل الذي نواه وقصد إليه وأراده، أما عندما يفقد الإرادة والنية والقصد، فهو عندئذ غير مذنب، وإنَّ الله يعفو عنه فيما صدر عنه في هذه الحالات.

- **والقرآن الكريم يؤكد ما جاء في الحديث:**

فقد جاء في آيات القرآن الكريم ما يؤكِّد العفو عن هذه الأمور:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

- **فقه الحديث:**

قال الفقهاء: إنَّ مفهوم الحديث هو رفع الإثم عن الفاعل، ولكن

هذا لا يعفيه من المسؤوليات، ولهم في ذلك تفصيلات لا مجال للوقوف عندها، ولكني أكتفي ببعض الأمثلة:

ـ فالذي دخل الماء جوفه من المضمضة وهو صائم؛ عليه أن يعيد صيام هذا اليوم.

ـ والذي أكل ناسياً وهو صائم؛ يتم صومه ولا يعيده؛ لورود الأحاديث بذلك.

ـ ومن صلَّى وهو يظن أنه متوضِّئ، ثُمَّ تبين بعد ذلك أنَّه لم يكن على طهارة؛ فلا إثم عليه ولكنَّه يعيد الصلاة.

ـ ومن حلف لا يفعل شيئاً، ففعله ناسياً ليمينه؛ فللفقهاء في ذلك أقوال.

والخلاصة: إنَّ هذا الدِّين يُسْرٌ، ومن أمثلة يُسره ما جاء به هذا الحديث.

الحديث الأربعون
كُنْ كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ

عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: أَخَذَ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: (**كُنْ فِي الدُّنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول:

«**إذَا أمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّباحَ، وَإذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِر المَساءَ. وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لمرَضِكَ، وَمِنْ حَياتِكَ لموْتِكَ**». رواه البخاري[1]

۞ ۞ ۞

● **شرح الحديث:**

هذا الحديث أصل في قِصر الأمل في الدُّنيا، وأنَّ المؤمن لاينبغي له أن يتَّخذ الدنيا وطناً ومسكناً، فيطمئن فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنَّه على جناح سفر، يهيِّئ جهازه للرحيل.

وكان النبيُّ ﷺ يقول: (**ما لي وللدُّنيا، إنَّما مثلي ومثل الدُّنيا، كمثل راكبٍ قالَ في ظلِّ شجرة، ثم راح وتركها**)[2].

وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة، فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين:

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٧).

ـ إما أن يكون كأنَّه غريب، مقيم في بلد غربة، هَمُّهُ التزوُّد للرجوع إلى وطنه.

ـ أو يكون كأنَّه مسافر غير مقيم البتة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة.

ومن كانت هذه حاله في الدنيا، فهمَّته تحصيل الزاد للسَّفر، وليس له همة في الاستكثار من متاع الدنيا، ولهذا أوصى النبيُّ ﷺ جماعة من أصحابه أن يكون بلاغهم من الدنيا كزاد الراكب.

وأما وصية ابن عمر رضي الله عنهما: فهي مأخوذة من هذا الحديث، وهي متضمنة لنهاية قصر الأمل، وأنَّ الإنسان إذا أمسى لم ينتظر الصباح، وإذا أصبح لم ينتظر المساء، بل يظنُّ أن أجله يدركه قبل ذلك، وبهذا فسَّر غير واحد الزهد في الدنيا.

وقوله: «**وخذ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك**» يعني: اغتنم الأعمال الصالحة في الصحة قبل أن يحول بينك وبينها السقم، وفي الحياة قبل أن يحول بينك وبينها الموت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه:

(اغتنم خمساً قبل خمس:

ـ شبابك قبل هرمك.

ـ وصحتك قبل سقمك.

ـ وغناك قبل فقرك.

ـ وفراغك قبل شغلك.

ـ وحياتك قبل موتك)[1].

---

(١) رواه في المستدرك (٧٨٤٦)، وقال الذهبي: على شرطهما.

فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة، قبل أن لا يقدر عليها، ويُحال بينه وبينها، إمَّا بمرض أو موت، أو شاغل يمنعه من القيام بها.

الحديث الحادي والأربعون
حتَّى يكونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِلسُّنَّةِ

عن عبدِ اللهِ بن عمرو بنِ العاصِ ﷺ، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ).

حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب «الحجة»[(١)] بإسنادٍ صحيح[(٢)]

❁ ❁ ❁

● **شرح الحديث:**

بغضِّ النظر عن ضعف الحديث فإنَّ معناه موافق لما في الكتاب والسُّنَّة.

قال الحافظ ابن رجب: وأما معنى الحديث فهو: أنَّ الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته ـ وهوى نفسه ـ تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها، فيحبُّ ما أمر به، ويكره ما نهى عنه.

---

(١) قال الحافظ ابن رجب: كتاب «الحجة» للشيخ أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الفقيه الزاهد نزيل دمشق، وكتابه هذا «الحجة على تارك المحجة» يتضمَّن ذكر أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسُّنَّة.

(٢) قال الحافظ ابن رجب: تصحيح هذا الحديث بعيد من وجوه... وذكرها.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال الإمام النووي في شرحه للأربعين: «عن إبراهيم بن محمد الكوفي، قال: رأيتُ الشافعيَّ بمكة يفتي النَّاس، ورأيتُ إسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل حاضرين، فقال أحمد لإسحاق: تعالَ حتَّى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله، فقال له إسحاق: لم تر عيناي مثله؟ قال: نعم.

فجاء به فوقفه على الشافعيِّ ـ فذكر القصة إلى أن قال ـ: ثم تقدم إسحاق إلى مجلس الشافعيِّ، فسأله عن كراء بيوت مكة.

فقال الشافعيُّ: هذا عندنا جائز، قال رسول الله ﷺ: **(فهل ترك لنا عقيل من دار؟)**.

فقال إسحاق: أخبرنا يزيد بن هارون، عن هشام، عن الحسن: أنه لم يرَ ذلك، وعطاء وطاووس لم يكونا يريان ذلك.

فقال له الشافعيُّ: أنت الذي تزعم أهل خراسان أنَّك فقيههم؟.

قال إسحاق: كذا يزعمون.

قال الشافعيُّ: ما أحوجني أن يكون غيرك في موضعك، فكنتُ آمر بفرك أذنيه، أنا أقول: قال رسول الله ﷺ، وأنت تقول: قال عطاء وطاووس والحسن وإبراهيم؛ هؤلاء لا يرون ذلك! وهل لأحد مع رسول الله ﷺ حجة؟! وذكر تمام الخبر». اهـ.

أقول: روى مسلم في «**صحيحه**»: عن سالم بن عبد الله: أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **(لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنَّكم إليها)** قال: فقال بلال بن عبد الله: والله

لنمنعهنَّ، قال: فأقبل عليه عبد الله فسبَّهُ سبّاً سيئاً، ما سمعتُه سبَّه مثله قط، وقال: أخبرك عن رسولِ الله ﷺ، وتقول: والله لنمنعهن؟![1].

فالواجب على كلِّ مؤمن أن يحبَّ ما أحبَّه الله ورسوله محبَّةً صادقةً، وأن تكون عواطفُه ورغباتُه تابعةً لما جاء به الرسول ﷺ.

والمعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله، وكذلك البدع إنَّما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا يسمى أهلها «أهل الأهواء».

(١) رواه مسلم (٤٤٢).

الحديث الثاني والأربعون
دُعَاءٌ وَرَجَاءٌ واسْتِغْفَارٌ

عن أنسِ بن مالكٍ ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول:

(قالَ الله تَعَالى:

يا ابنَ آدم، إنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَني غَفَرْتُ لَكَ ـ عَلى مَا كانَ مِنْكَ ـ وَلا أُبَالي.

يا ابنَ آدم، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَني، غَفَرْتُ لَكَ.

يا ابنَ آدم، إنَّكَ لَوْ أتَيْتَني بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيْتَني لا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً).

رواه الترمذي، وقال: حديث حسن(١)

❁ ❁ ❁

- **شرح الحديث:**

قوله: **(عنان السماء)** قيل: هو السحاب، وقيل: ما ظهر لك إذا رفعتَ رأسك.

قوله: **(بقراب الأرض)** أي: بقرب ملئها، أو بمثلها.

قال الإمام النووي في «شرح الأربعين»: واعلم أن الاستغفار معناه

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٤٠).

طلب المغفرة، وهو استغفار المذنبين، وقد يكون عن تقصير في أداء الشكر، وهو استغفار الأولياء والصالحين، وقد يكون لا عَنْ واحد منهما، بل يكون شكراً، وهو استغفاره ﷺ واستغفار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال الحافظ ابن رجب: [قد تضمَّن هذا الحديث: أنَّ الأسباب التي تحصل المغفرة بها ثلاثة:

ـ **أحدها: الدعاء مع الرجاء**، فإنَّ الدعاء مأمور به، وموعود عليه الإجابة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

لكن الدعاء سبب مقتضٍ للإجابة مع استكمال شرائطه، وانتفاء موانعه، وقد تتخلَّف إجابته، لانتفاء بعض شروطه، أو وجود بعض موانعه.

ومن أعظم شرائطه: حضور القلب، ورجاء الإجابة من الله تعالى.

ـ **الثاني من أسباب المغفرة: الاستغفار**، ولو عظمت الذنوب، وبلغت الكثرة عنان السماء.

والاستغفار: طلب المغفرة، **والمغفرة**: هي وقاية شر الذنوب مع سترها، وكثيراً ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللِّسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلوب والجوارح، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

ـ **الثالث من أسباب المغفرة: التوحيد**، وهو السبب الأعظم؛ فمن فقده فقد المغفرة، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]].

أقول: وخلاصة ما يقرره هذا الحديث الشريف أن باب التوبة مفتوح على مصراعيه، يستوعب كلَّ المذنبين مهما عظمتْ ذنوبهم وكثرت، إذا تحقق للمذنب شرطان:

١ ـ أن يلقى الله بالتوحيد لا يشرك به شيئاً.

٢ ـ أن يتوجَّه إليه بالدعاء والاستغفار والتوبة.

اللهم اغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وعُد علينا بعوائدك الحسنى يا كريم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

وبعد:

فقد رأينا كيف تكوَّنتْ فكرة الأربعين النووية، حيث بدأتْ بكلمة للإمام أحمد، ثم تتابعت الكلمات المؤكِّدة لما قاله، والكلمات التي أضافت إلى ما قاله أحاديث أخرى... ثم كان دور ابن الصلاح.. ثم أتمَّ العمل الإمام النوويُّ.

ولكن ما الذي قصد إليه الإمام أحمد عندما قال: أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث:

- حديث عمر: (**إنَّما الأعمال بالنِّيَّات..**).
- وحديث عائشة: (**من أحْدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**).
- وحديث النعمان: (**الحلال بيِّن، والحرام بيِّن..**).

ويغلب على الظن - والله أعلم - أنَّ الإمام أحمد رأى في هذه الأحاديث الميزان الذي ينبغي أن يستقرَّ في نفس كلِّ مسلم، فإذا أراد القيام بعمل ما، حقَّق فيه المواصفات الواردة في هذه الأحاديث.. وعندها سيكون متقبلاً عند الله.

وبتعبير آخر: فإنَّه حتى يكون العمل سليماً مقبولاً - وفقاً لما جاء في هذه الأحاديث -:

- لابد أن يكون الباعث عليه سليماً.
- وأن يكون العمل نفسه ممَّا أقرَّه الإسلام.

ـ وإذا اشتبه أمر ما على المسلم فلم يتبيَّن حكمه، فليرجع إلى فطرته السليمة، فإنَّها ترشده إلى الصواب فإنَّ الحلال بيِّن والحرام بيِّن، هذا إذا لم يجد من يسأله من أهل الذكر.

إنَّ استقرار هذا الميزان في عقل كلِّ مسلم أمر ضروريٌّ، لأنه يساعده أن يظلَّ على الطريق المستقيم.

وإذا ما تفحَّصنا ـ بعد ذلك ـ كلَّ الأحاديث التي أضافها أبو داود، وابن الصلاح، والنوويُّ، وجدنا أنَّها جميعها تؤكِّد على وجود هذا الميزان، الذي ينبغي أن يكون مع كلِّ مسلم بشكل دائم.

ومن هذا الفهم ـ فيما أعتقد ـ كانت وصية العلماء بحفظ هذه الأربعين وتحفيظها للأطفال، حتى إذا ما بلغوا كانت عوناً لهم على ضبط المسار وتصحيحه عند الانحراف.

وهذا ما يفسِّر لنا هذا الانتشار الواسع بين النَّاس لهذا الكتاب الصغير الحجم، فقد أصبح الدستور الشخصيَّ الذي يحسن بالمسلم أن يعرف مواده ويفهمها.. فالعمل بمقتضاها فيه السَّلامة في الدنيا والآخرة.

والخلاصة: إنَّ نجاح الإنسان في الدنيا والآخرة مرتبط بصلاح عمله، وقد وَضَعَتْ هذه الأحاديث الكلية بين يدي كلِّ مسلم الميزانَ الذي يبيِّن صلاح العمل من فساده.

ومن هنا كانت العناية بهذه الأحاديث من حفظ وفهم للمعنى، وتحفيظها للأجيال أمراً ضرورياً، حتَّى نظلَّ على الطريق المستقيم.

وبهذا نصل إلى ختام هذه الرسالة، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

كتب للمؤلف

- **في السنة المطهرة:**

١ ـ الجامع بين الصحيحين، ط ٢ (في مجلدين).

٢ ـ الوافي بما في الصحيحين، ط ٢ (في مجلد).

٣ ـ زوائد السنن على الصحيحين (٧ مجلدات).

٤ ـ زوائد الموطأ والمسند على الكتب الستة (٣ مجلدات).

٥ ـ زوائد السنن الكبرى للبيهقي على الكتب الستة (٣ مجلدات).

٦ ـ زوائد ابن خزيمة وابن حبان والمستدرك على الكتب التسعة (٣ مجلدات).

٧ ـ تحقيق الجمع بين الصحيحين، للموصلي (في مجلدين).

٨ ـ العناية بالأدب المفرد، للإمام البخاري (في مجلد).

٩ ـ جامع الأصول التسعة (تحت الطبع).

١٠ ـ تحقيق مشارق الأنوار، للقاضي عياض.

١١ ـ زوائد «الأحاديث المختارة» للمقدسي على الكتب التسعة.

- **في السيرة النبوية الشريفة:**

١ ـ من معين السيرة.

٢ ـ من معين الشمائل.

٣ ـ من معين الخصائص النبوية.

٤ ـ السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).

٥ ـ أضواء على دراسة السيرة.

٦ـ هكذا فهم الصحابة.

٧ ـ أهل الصُّفَّة (بعيداً عن الوهم والخيال).

٨ ـ الغرانيق (قصة دخيلة على السيرة النبوية).

٩ ـ سيرة النبيِّ ﷺ في بيته.

١٠ ـ المهذَّب من الشفا، للقاضي عياض.

١١ ـ تحقيق المواهب اللدنية، للقسطلاني (٤ مجلدات).

- **مشروع تقريب تراث الإمام ابن القيم** رحمه الله:

١ ـ تقريب طريق الهجرتين.

٢ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب، ط ٢.

٣ ـ سيرة خير العباد.

٤ ـ البيان في مصايد الشيطان.

٥ ـ القضاء والقدر.

٦ ـ قل انظروا.

٧ ـ فضل العلم والعلماء، ط٢.

٨ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

٩ ـ الهدي النبوي في العبادات.

١٠ ـ الهدي النبوي في الفضائل والآداب.

١١ ـ الروح.

١٢ ـ فصول في الاعتقاد.

١٣ ـ طب القلوب، ط ٤.

١٤ ـ الجواب الكافي (الداء والدواء)، ط٢.

١٥ ـ المهذب من مدارج السالكين، ط ٢.

١٦ ـ فضل الصلاة والسلام على خير الأنام.

١٧ ـ إعلام الموقِّعين عن رب العالمين.

- **في الأخلاق وتهذيب النفس:**

١ ـ مواعظ الصحابة.

٢ ـ سلسلة مواعظ الأئمة في (٢٠) عدداً.

٣ ـ تهذيب حلية الأولياء، للأصبهاني (٣ مجلدات).

٤ ـ المهذب من إحياء علوم الدين (مجلدان).

٥ ـ تحقيق رسالة المعرفة، للمحاسبي.

- **موضوعات أخرى:**

١ ـ محبة الله ورسوله شرط في الإيمان.

٢ ـ الفرائض فقهاً وحساباً (في جزأين).

٣ ـ الإمام الغزالي (سلسلة أعلام المسلمين).

٤ ـ الفن الإسلام (التزام وإبداع).

٥ ـ دراسة جمالية إسلامية في ثلاثة أجزاء:

ـ الظاهرة الجمالية في الإسلام.

ـ ميادين الجمال.

ـ التربية الجمالية في الإسلام.

٦ ـ نظرات في هموم المرأة المسلمة.

٧ ـ فصول في إصلاح النفس والمجتمع (للإمام ابن الجوزي).

٨ ـ رضيتُ بالإسلام ديناً.

٩ ـ الجمال في منهج الإسلام وتشريعه.

١٠ ـ نداء الإيمان في القرآن الكريم.

١١ ـ الإسلام دين التيسير.

١٢ ـ الصلاة.. الصلاة (آخر ما تكلم به النبيُّ ﷺ).

١٣ ـ الإمام ابن قيم الجوزية (سلسلة أعلام المسلمين).

فهرس الموضوعات

- المقدمة ٥
- بيان الأحاديث النبوية الكلية ٩

الباب الأول

الأحاديثُ النبويَّةُ الكُلِّيَّةُ

(الَّتي عَلَيْها مَدَارُ أحكامِ الإسْلَامِ)

- **الحديث الأول: حَدِيثُ جِبْرِيلَ عليه السلام** ١٥
  - مكانة الحديث ١٦
  - شرح الحديث ١٨
    - ١ ـ الإسلام ١٨
    - ٢ ـ الإيمان ١٩
    - ٣ ـ الإسلام والإيمان ٢٠
    - ٤ ـ الإحسان ٢٢
    - ٥ ـ علامات الساعة ٢٤
    - ٦ ـ بيان وتفصيل ٢٥
  - **الفصل الأول: الإحسان** ٢٦
    - ١ ـ الرياء ٣١
    - ٢ ـ رغبات النفس ٣١
  - **الفصل الثاني: الإسلام والإيمان والإحسان** ٣٥
- **الحديث الثاني: إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ** ٤١

- مكانة الحديث ٤١
- شرح الحديث ٤٢
١ - قوله ﷺ: (إنَّما الأعمال بالنِّيَّات) ٤٢
٢ - قوله ﷺ: (وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى) ٤٣
٣ - المقصود بالنِّيَّة ٤٣
٤ - قوله ﷺ: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله...) ٤٥
٥ - كيفية النية ٤٦
٦ - النية والعمل ٤٧
٧ - شروط صحة العمل ٤٨
٨ - النية عند الفقهاء ٤٩
٩ - هل يتلفَّظ بالنِّيَّة؟ ٥٠
١٠ - مهاجر أم قيس ٥١
• **الحديث الثالث: مَنْ عَمِلَ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا** ٥٢
- منزلة الحديث ٥٢
- شرح الحديث ٥٣
١ - قاعدة عامة ٥٣
٢ - قوله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) ... ٥٣
٣ - قوله ﷺ: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ) ٥٤
٤ - خلاصة القول ٥٦
• **الحديث الرابع: الحَلَالُ بَيِّنٌ** ٥٧
- مكانة الحديث ٥٧
- شرح الحديث ٥٨
١ - قوله ﷺ: (الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ) ٥٨
٢ - قوله ﷺ: (بينهما أمورٌ مشتبهاتٌ) ٥٨

٣ ـ قوله ﷺ: (لا يعلمهنَّ كثير من النَّاس) ٥٩
٤ ـ قوله ﷺ: (فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه...) . ٦١
٥ ـ قوله ﷺ: (كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه...) ٦٢
٦ ـ قوله ﷺ: (ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت...) .. ٦٣
٧ ـ العلم والتطبيق ٦٤
• **الحديث الخامس: الأَعْمَالُ بالخَوَاتِيمِ** ٦٥
ـ مكانة الحديث ٦٦
ـ شرح الحديث ٦٦
١ ـ الشطر الأول من الحديث ٦٦
٢ ـ كتابة الكلمات ٦٨
٣ ـ السعادة والشقاوة ٦٨
٤ ـ الشطر الثاني من الحديث ٧١
٥ ـ خواتيم الأعمال ٧٦
• **الحديث السادس: الدِّينُ النَّصِيحَةُ** ٧٨
ـ مكانة الحديث ٧٨
ـ شرح الحديث ٧٩
١ ـ الدين النصيحة ٧٩
٢ ـ الخلاصة ٨٣
٣ ـ حكم الغشِّ ٨٤
٤ ـ نصيحة النَّاس كلِّهم ٨٦
• **الحديث السابع: لا يَقْبَلُ اللَّه إلَّا طَيِّباً** ٨٨
ـ مكانة الحديث ٨٨
ـ شرح الحديث ٨٩
١ ـ قوله ﷺ: (إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبل إلا طيِّباً) ٨٩
٢ ـ قوله ﷺ: (وإنَّ الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين) ٩٠

٣ ـ قوله ﷺ: (ثم ذكر الرَّجل يطيل السفر، أشعث أغبر، . . .) ٩١
٤ ـ قوله ﷺ: (فأنَّى يُستجاب لذلك) ٩٢
٥ ـ تعقيب ٩٣
• الحديث الثامن: ما نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فاجْتَنِبُوهُ ٩٦
ـ مكانة الحديث ٩٦
ـ روايات الحديث ٩٧
ـ الأسئلة زمن النبيِّ ﷺ ٩٧
ـ شرح الحديث ٩٨
١ ـ قوله ﷺ: (ما نهيتُكم عنه فاجْتنبوه، وما أمرتُكم به. . .) ٩٨
٢ ـ النَّهي والأمر في هذا الحديث ١٠٠
٣ ـ قوله ﷺ: (فأْتوا منه ما استطعتُم) ١٠٢
٤ ـ السؤال بعده ﷺ ١٠٢
ـ وقفة تأمُّل ١٠٣
• الحديث التاسع: يُحِبُّ لأخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ١٠٤
ـ مكانة الحديث ١٠٤
ـ شرح الحديث ١٠٤
١ ـ الحبُّ في المجتمع الإسلاميِّ ١٠٦
٢ ـ الأخوَّة ١٠٧
٣ ـ الحبُّ الخالصُ ١١١
٤ ـ حبٌّ يتجاوز المكان والزمان ١١٢
• الحديث العاشر: قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ ١١٤
ـ مكانة الحديث ١١٤
ـ شرح الحديث ١١٤
○ الأحاديثُ الكلِّيةُ ومنهجُ العَمَلِ ١١٩
أولاً: علاقة الإنسان بخالقه سبحانه ١٢٠

ثانياً: علاقة الإنسان مع نفسه ومع ما حوله ١٢١
١ ـ معرفة الإنسان نفسه وغاية وجوده ١٢١
٢ ـ مواصفات العمل الذي يصدر عنه ١٢١
٣ ـ كيف يتعامل الإنسان مع الأشياء من حوله؟ ١٢٢
ثالثاً: العلاقة بالناس ١٢٢
١ ـ أما الأخوَّة ١٢٣
٢ ـ وأما النُّصح ١٢٣
○ خلاصة: بيانُ علاقاتِ الإنسانِ وتصرُّفاتِه ١٢٤

الباب الثاني
بقيَّة
أَحَادِيثِ الأربعينَ النَّوَوِيَّة

• **الحديث الحادي عشر: أَرْكَانُ الإِسْلَامِ** ١٢٧
ـ شرح الحديث ١٢٧
١ ـ الصلاة ١٢٨
٢ ـ الزكاة ١٢٩
٣ ـ الصوم ١٣٠
٤ ـ الحج ١٣١
• **الحديث الثاني عشر: أُمِرْتَ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتَّى يَشْهَدُوا** ١٣٣
ـ شرح الحديث ١٣٣
• **الحديث الثالث عشر: دَعْ مَا يَرِيْبُكَ** ١٣٥
ـ شرح الحديث ١٣٥
• **الحديث الرابع عشر: مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ** ١٣٦
ـ شرح الحديث ١٣٦
• **الحديث الخامس عشر: حُرْمَةُ دَمِ المُسْلِمِ** ١٣٨

ـ شرح الحديث ١٣٨
• الحديث السادس عشر: فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ ١٤٠
ـ شرح الحديث ١٤٠
الأول: (فليقلْ خيراً أو ليصمت) ١٤٠
الثاني: (فليكرمْ جاره) ١٤١
الثالث: (فليكرمْ ضيفه) ١٤٢
• الحديث السابع عشر: لَا تَغْضَبْ ١٤٤
ـ شرح الحديث ١٤٤
• الحديث الثامن عشر: إنَّ اللَّه كَتَبَ الإحْسَانَ ١٤٦
ـ شرح الحديث ١٤٦
• الحديث التاسع عشر: اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُما كُنْتَ ١٤٨
ـ شرح الحديث ١٤٨
الأولى: قوله ﷺ: (اتَّقِ الله حيثما كنتَ) ١٤٨
الثانية: قوله ﷺ: (وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها) ١٤٩
الثالثة: قوله ﷺ: (وخالِقِ النَّاسَ بخلُق حَسَن) ١٤٩
• الحديث العشرون: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ١٥١
ـ شرح الحديث ١٥١
الأولى: قوله ﷺ: (احفظِ اللهَ يحفظْكَ، ...) ١٥٢
الثانية: قوله ﷺ: (إذا سألتَ فاسأل الله، ...) ١٥٢
الثالثة: قوله ﷺ: (واعلم أن الأمة...) ١٥٣
• الحديث الحادي والعشرون: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فاصْنَعْ مَا شِئْتَ ١٥٥
ـ شرح الحديث ١٥٥
• الحديث الثاني والعشرون: الاقْتِصَارُ عَلَى الفَرَائِضِ ١٥٧
ـ شرح الحديث ١٥٧
• الحديث الثالث والعشرون: الطُّهُورُ شَطْرُ الإيْمَانِ ١٦٠

- شرح الحديث ١٦٠
١ - قوله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان) ١٦٠
٢ - قوله ﷺ: (والحمد لله تملأ الميزان،...) ١٦١
٣ - قوله ﷺ: (الصلاةُ نورٌ، والصَّدقة برهانٌ،...) ١٦١
٤ - قوله ﷺ: (والقرآن حجة لك أو عليك) ١٦٢
٥ - قوله ﷺ: (كلُّ النَّاس يغدو، فبائعٌ نفسَه،...) ١٦٢
• **الحديث الرابع والعشرون: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ** ١٦٤
- شرح الحديث ١٦٥
• **الحديث الخامس والعشرون: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالأُجُورِ** ١٦٨
- شرح الحديث ١٦٨
• **الحديث السادس والعشرون: الصَّدَقَةُ في كُلِّ يَوْمٍ** ١٧٢
- شرح الحديث ١٧٢
- قوله ﷺ: (وتميط الأذى عن الطريق صدقة) ١٧٣
• **الحديث السابع والعشرون: البِرُّ وَالإِثْمُ** ١٧٦
- شرح الحديثين ١٧٦
• **الحديث الثامن والعشرون: مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ** ١٧٨
- شرح الحديث ١٧٨
• **الحديث التاسع والعشرون: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ** ١٨١
- شرح الحديث ١٨٢
• **الحديث الثلاثون: إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ** ١٨٥
- شرح الحديث ١٨٥
• **الحديث الحادي والثلاثون: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ** ١٨٧
- شرح الحديث ١٨٧
١ - معنى الزهد ١٨٨
٢ - معنى الدنيا ١٨٨

٣ ـ قوله ﷺ: (ازهد في الدُّنيا يحبَّك الله) ١٨٩
٤ ـ قوله ﷺ: (وازهد فيما في أيدي النَّاس يحبَّك النَّاس) . ١٩٢
• الحديث الثاني والثلاثون: لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ ١٩٣
ـ شرح الحديث ١٩٣
• الحديث الثالث والثلاثون: البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي ١٩٥
ـ شرح الحديث ١٩٥
• الحديث الرابع والثلاثون: النَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ ١٩٨
ـ شرح الحديث ١٩٨
• الحديث الخامس والثلاثون: حُقُوقُ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ ٢٠١
ـ شرح الحديث ٢٠١
• الحديث السادس والثلاثون: مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً ٢٠٦
ـ شرح الحديث ٢٠٦
١ ـ قوله ﷺ: (من نفَّس عن مؤمن كربةً..) ٢٠٧
٢ ـ قوله ﷺ: (ومن يسَّر على معسِر..) ٢٠٧
٣ ـ قوله ﷺ: (ومن ستر مسلماً ستره الله..) ٢٠٧
٤ ـ قوله ﷺ: (والله في عَوْن العبدِ ما كان العبدُ في عون أخيه) ٢٠٨
٥ ـ قوله ﷺ: (ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً،...) ... ٢٠٨
٦ ـ قوله ﷺ: (وما جلس قوم في بيت من بيوت الله..) ... ٢٠٩
٧ ـ قوله ﷺ: (ومن بطَّأ به عمله، لم يُسرع به نسبُه) ٢١٠
• الحديث السابع والثلاثون: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ٢١١
ـ شرح الحديث ٢١١
١ ـ والأعمال الحسنة نوعان ٢١٢
٢ ـ والأعمال السيئة نوعان ٢١٢
• الحديث الثامن والثلاثون: مَنْ عَادَى لي وَلِيًّا آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ ٢١٤
ـ شرح الحديث ٢١٤

١ ـ قوله ﷺ: (إنَّ الله تعالى قال) ٢١٤
٢ ـ قوله: (من عادى لي وليّاً، فقد آذنتُه بالحرب) ٢١٥
٣ ـ قوله: (وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه) ٢١٥
٤ ـ قوله: (ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه) . ٢١٦
٥ ـ قوله: (فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه..) ٢١٦
٦ ـ قوله: (ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه) .. ٢١٧
• **الحديث التاسع والثلاثون: إنَّ اللَّه تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ** ٢١٨
ـ شرح الحديث ٢١٨
ـ والقرآن الكريم يؤكد ما جاء في الحديث ٢١٩
ـ فقه الحديث ٢١٩
• **الحديث الأربعون: كُنْ كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ** ٢٢١
ـ شرح الحديث ٢٢١
• **الحديث الحادي والأربعون: حتَّى يكونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِلسُّنَّةِ** ٢٢٤
ـ شرح الحديث ٢٢٤
• **الحديث الثاني والأربعون: دُعَاءٌ وَرَجَاءٌ واسْتِغْفَارٌ** ٢٢٧
ـ شرح الحديث ٢٢٧
• **الخاتمة** ٢٣١
• **كتب للمؤلف** ٢٣٣
• **فهرس الموضوعات** ٢٣٧